

كليــة الآداب

مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول حول التبادل الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ

(١٥ - ١٩ يناير ١٩٩٤)

بحوث المؤتمر

(الكتاب الثانى)

FACULTY OF ARTS ALEXANDRIA UNIVERSITY

ALEXANDRIA FIRST INTERNATIONAL CONFERENCE ON CULTURAL INTERACTION AMONG MEDITERRANEAN PEOPLES THROUGH HISTORY

JANUARY 15 - 19, 1994

مقرر عام المؤتمر

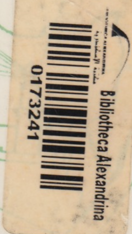
أ . د . محمد عبده محجوب

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

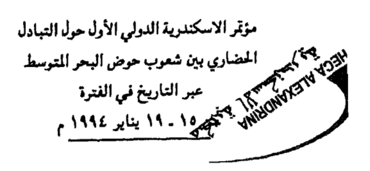
رئيس المؤتمر

أ . د . فتحي محمد أبو عيانة

عميد الكلية







مؤتمر الاسكندرية الدولي الأول حول التبادل
الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط
عبر التاريخ في الفترة
١٥ ـ ١٩ يناير ١٩٩٤ م

الذات العربية والقيم الثقافية الغربية : بحث في الإتصال الثقافي

دكتور/ محمد عباس ابراهيم
استاذ الأنثروبولوجيا المساعد
قسم الأنثروبولوجيا ـ جامعة الاسكندرية

- مقدمة : في المدخل والتساؤلات .
- الذات في الفكر الأنثروبولوجي .
- الذات في مفهوم الأنا : المكونات البنائية .
- الذات في مفهوم الآخر : رؤية تحليلية .
- القيم المجتمعية ومحاكاة نموذج الآخر :
  - قيم العلم والنموذج الغربي .
  - الذات العربية ونموذج العلوم الإنسانية والتكنولوجية .
- خاتمة واستنتاجات .
- مراجع وهوامش البحث .

١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الاسكندرية
كلية الآداب

مؤتمر الاسكندرية الدولي الأول حول التبادل
الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط
عبر التاريخ في الفترة
من ١٥ ـ ١٩ يناير ١٩٩٤ م

الذات العربية والقيم الثقافية الغربية : بحث في الإتصال الثقافي

دكتور/ محمد عباس ابراهيم
استاذ الأنثروبولوجيا المساعد
قسم الأنثروبولوجيا ـ جامعة الاسكندية

" إذا أردنا أن نلتمس المؤثر الأساسي في تكوين
العقل المصري فمن الحق أن نفكر في البحر
الأبيض المتوسط "

طه حسين

ـ مقدمة : في المدخل والتساؤلات :

يهدف البحث ـ من خلال رؤية أنثروبولوجية ـ الي معالجة مايتصل بمقومات بناء الذات العربية ، والتي هي نتاج لمجموعة من البني المتباينة والمتفاعلة في إطار البيئة (بدوية ، زراعية ، عمرانية حضرية) ، والتنوع السكاني والمؤسسات والتنظيمات الإجتماعية ، والمكونات الثقافية والتاريخية . فالذات العربية هي نتاج مجتمع شديد التنوع إنتقالي زمانيا (متمسك بالماضي ، متطلع تجاه المستقبل)، إنتقالي مكانيا (يجاذب الشرق والغرب في آن واحد) ، متمسك بجذوره الأصيلة ، متطلع إلي حياة مستقبلية مستحدثة . متجاذب في حيرة بين السلفية والعلمانية ، يسوده إحساس بالثراء والغني في ثروته ، والفقر

والتخلف في آن واحد ، ثقافته منفتحة متغيرة ، وتميل في نفس الوقت إلي الثبات والتجذر ، فما هي أسس ومقومات بناء الذات العربية ؟ وأين تقع من ذلك كله ؟

كما يهدف البحث إلي معالجة رؤية الذات العربية لنفسها في ضوء ثقافتها أو (ثقافاتها) وقيمها ، كما يعالج البحث في جانب آخر رؤية متبادلة بين قيم الذات العربية (جنوب المتوسط)، وقيم الثقافة الأوروبية (شمال المتوسط) ، والتي حكمتها علاقة ذات خلفية شائكة ، ومعقدة ، قائمة علي تاريخ طويل من الصراع المجبول بالخوف والعنف أحيانا ، والتنافس والتناحر أحيانا أخري . حيث يري الغرب أن مجتمع الصحراء الذي يعيش فيه العربي لايسمح له بالتطور والرقي، وأنه قد يصل إلي أعلي درجات السلم الاجتماعي ، إلا أنه في النهاية يعتبر نمطا لكل الملامح السلبية التي تفرزها حياة الصحراء .. وفي المقابل تجسدت وتجذرت صورة الغربي لدي العربي علي أنه مستعمر(١) ، يتمتع بقيم الإستغلال والهيمنة ، والتعصب ، والتشويه ، والتزييف ، والسخرية من الشخصية العربية .

وقد طرحت مؤخرا قضية التبادل الحضاري بين مجتمعات وشعوب حوض البحر المتوسط لا علي المستويات الرسمية أو الحكومية فقط ، وإنما علي مستويات الشعوب . وتأتي الرغبة في الطرح تأكيدا علي أهمية التعاون ، وضرورة ملحة من أجل إنشاء هياكل غير حكومية تتمتع بكامل الصلاحيات في التخطيط والفعل والمشاركة والتبادل . وربما كانت الإستجابة غير الرسمية متمثلة في الندوة الدولية التي عقدت في تونس في السادس من نوفمبر الماضي (١٩٩٣ م) بدعوة من الحزب الحاكم ـ التجمع الدستوري الديمقراطي ـ وكان موضوعها " مستقبل التعاون في البحر الأبيض المتوسط " ، وانتهت الندوة الي توصيات ومتطلبات فرضتها الرغبة الجماعية ، والتي من بينها ؛ التأكيد علي الديمقراطية كشرط

لاستمرار التنمية والسلام في المتوسط ، التضامن والتعاون من أجل إقامة نظام اقليمي قوامه العدل والحرية والديمقراطية والتنمية ، والتعامل مع الإرث الحضاري لشعوب المتوسط علي أنه عامل أو عنصر تكامل لا تجزئه .

وعلي الرغم من النقاط الخلافية أو المتفقة التي يثيرها حديث التبادل الحضاري بين مجتمعات وشعوب البحر الأبيض المتوسط ، إلا أن الرؤية الأنثروبولوجية في المعالجة تنطلق من مبدأين أساسيين :

أولهما ؛ إن مجتمعات وشعوب المتوسط تمثل إرثا حضاريا مشتركا ومهدا لثلاثة أديان سماوية ، وسواء قبلنا الإرث أم أبيناه إلا أنه في الحقيقة واقع التاريخ والزمن والتكوين الحضاري .

ثانيهما ؛ إن التأثير الحضاري المتبادل بين شعوب المتوسط أمر لامفر منه ، حيث لم يتوقف التأثير علي التبادل بين شعوبه فقط ، وإنما كان للحضارتين الكبيرتين اليهودية والمسيحية ، والحضارة العربية الإسلامية أثرهما الواضح في التأثير في مجتمعات وشعوب أبعد ماتكون عن الدائرة الإقليمية أو الثقافية للمتوسط .

وعلي الرغم من أن العلاقة الثقافية بين شعوب المتوسط إتسمت بأنها علاقة " بندولية " أي تبادلية منذ فجر التاريخ ، حيث برهنت عليها بأدوات الإتصال كل من الحضارات الفرعونية ، والفينيقية ، والإغريقية ، ثم تلا ذلك حضارتي اليهودية والمسيحية ، والعربية الإسلامية ثم يقظة أو مايسمي بحضارة وسط أوروبا ، والتي تمثلت في الأمبراطورية النمساوية والمجرية في ظل تاريخ أوروبي مشترك ، كان له تأثيره علي بقية الشعوب الأوروبية من جهة ، كما كان عاملا للتجزئة والخصوصية الثقافية للمجتمعات الأوروبية فيما بعد من جهة أخري ، لاسيما بعد أن جاذبت الشعوب الأوروبية تيارات الفكر المسيحي الرأسمالي ،

وتيارات الفكر الماركسي الشيوعي الإشتراكي .

وقد جرت العادة أن الفكر العربي لايطرح السؤال الهام حول مستقبله في إطار تبادلية العلاقات بينه وبين الآخر ، إلا إذا كان حاضره يعاني أزمة حادة ، متعددة الأبعاد ، ويستشعر خطرا حقيقيا يهدد ذاته، وهويته ، وأنساقه التي ألفها ، حتي وإن كانت هذه الأنساق - أو بعض منها - قد أصبحت لاتوظف في خدمة الحاضر ، بل أن توظيفها قد يؤدي الي حدوث كارثة ، ألا وهي تخلف الحاضر الذي يعيشه هذا الفكر . وما يستشعره من افلاس في أنساقه المادية والفكرية ، تؤدي به الي عدم المواءمة بين متغيراته، والمتغيرات الجذرية لغيره من المجتمعات والثقافات.

ولهذا فإن طرح السؤال المتعلق بهوية " الذات" يعد علامة من علامات أزمة الأنظمة القيمية الثقافية، وربما تجاوز في مدلولاتها البعد الثقافي فتلتبس وتتشابك مع أبعاد آخري سياسية واجتماعية ومعرفية ودينية في وقت واحد . وغالبا ماتدل هذه العلاقة علي أننا لانفكر في مستقبلنا إلا من منطق الآلية الدفاعية التي تتحرك حركة نكوصية ، إذعانية ، مكبوشة في نوع من الارتداد إلي الذات (٢) ، ولكن الخوف كل الخوف أن يشعرنا هذا الإرتداد بعجز الأنا عن مواجهة تحدياتها ، وهنا يتجسم الخوف الأكبر من الذات إذا ماحاولت أن تستحضر - في صورة اسقاطية - بدائل تلوذ إليها وتتوهم أنها تحميها أو تصونها مما يهددها من الخطر الخارجي ، فتغدو صورتها صورته التي تحلم بها في عملية الاستبدال . وسواء كنا في هذا الطرف من الاستبدال او ذاك فإن الناتج واحد في الحالين ، وهو الإسقاط الذي ينفي الحضور الفاعل في كل الأحوال .

ولا شك ان الاستخدام الذكي للغة العلوم الانسانية والاجتماعية كفيل بتقديم تفسيرات وتحليلات لكافة الأبعاد المتداخلة بين مفهوم " الذات" ، و " الآخر " . وهو مايتيح أكبر قدر من التقارب الحضاري لا بين العرب والغرب فحسب ، وأنما

بين الشعوب الانسانية بوجه عام .

وقد يكون العرب منشغلون دائما بمشكلة تحديد " الهوية " أو " الذات " أو " الأنا" في مواجهة " الآخر " ، وعلي الدوام كان الغرب أو الأوروبي ـ ولأسباب تاريخية وحضارية ـ بصفة عامة هو الذي يمثل الآخر أمام " العربي" . لهذا كان لابد من استشراف وتحليل بعض جوانب العلاقة في ضوء طرحنا للتساؤلات الآتية :

ـ مامدي الصلة وطبيعتها بين العقل العربي ، والعقل العالمي إن صح التعبير ؟ أي ، ماالموقف من قضية التفرد والعمومية ؟ ويرتبط بهذا التساؤل تساؤل آخر مؤداه :

ـ ماهي المعاني والدلالات التي تربطنا نحن العرب بماضينا وتاريخنا الطويل المزدحم بالنجاحات والاخفاقات ؟ اي هل أعطي الماضي " للذات " العربية إتساقا مع نفسها ، ومنحها ثقة في مستقبلها ؟ ونجمل التساؤلات ، فنقول :

ـ ماعلاقتنا بماضينا ؟ وكيف نري ونفهم الكون والمجتمع والإنسان ؟ وما هي رؤيتنا وتعبيرنا عن أنفسنا ؟

ـ فهل تعتمد " الذات" العربية ويتكامل بناء عناصرها ومقوماتها في ضوء تفاعلها مع ثقافتها أو(ثقافاتها) المحلية ، أم أن لثقافة الآخر (الأوروبي) دور في ذلك ؟ وان وجد هذا الدور فما مدي تأثيره وتفاعله في ضوء نظر أو رؤية " الذات " إلي قيم " الآخر" الأوروبي ؟

وفي ضوء التساؤل السابق ، نقول :

ـ ماهي حدود العلاقة التبادلية بين الذات العربية ومنطقتها الثقافية ، وبين القيم الثقافية الغربية المنتمية للجانب الآخر لثقافات وشعوب البحر المتوسط ؟ وما مدي رؤية الذات العربية لمفاهيم ومعاني الإتصال ، والإستعارة ، والغزو

والتبعية ، والغربنة ، والأمن الثقافي من خلال النظرة الي بعض قيم الذات (في الثقافة العربية) وقيم الآخر (في الثقافة الأوروبية) ؟ ....

وللإجابة علي هذه التساؤلات سنعرض فيما يلي تحديدا لمفهوم الذات في الفكر الأنثروبولوجي، فضلا عن مفهوم الذات في الأنا في ضوء مكوناتها البنائية ، ومن ثم رؤية او مفهوم الذات عند الآخر . ثم نتناول القيم المجتمعية ودورها في بناء الذات وعلاقتها بقيم نموذج الآخر ، وسوف تكون معالجتنا مركزة علي قيم العلم وأدواته ومن ثم ينتهي البحث الي خاتمة واستنتاجات .

- الذات في الفكر الأنثروبولوجي :

اكتسب التفكير الانثروبولوجي المعاصر أهمية خاصة من خلال اهتمام الباحثين بدراسة وتحليل موضوع الثقافة والشخصية ، حيث تمثل الشخصية متغيرا سيكولوجيا ، وموضوعا أساسيا لدي معظم الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية التي بدأت في منتصف العشرينات من هذا القرن ، وخصوصا في الأعمال العلمية لكل من سيلجمان Seligman، ومالينوفسكي Malinowski، وفرانز بواس Boas، ومارجريت ميد Mead، وإدوارد سابير Sapir ، وروث بنديكت Benedict ، وغيرهم . وجاءت أهمية تلك الدراسات في موضوع الثقافة والشخصية من خلال تركيزها علي فهم القضايا الأساسية المرتبطة بمفهوم الطابع القومي أو الشخصية القومية National Character ، وهو المفهوم الذي نسج في بداية الأمر كرد فعل للهندسة الإجتماعية لبعض الإدارات الحكومية والقضايا الأميريقية الناجمة عن نتائج الحرب العالمية الثانية ، ونتائج الحرب الباردة بين الشعوب(٣). حيث إهتم الباحثون بدراسة الأنماط الثقافية المختلفة وأثرها علي مكونات الشخصية القومية ، والتي أمكن صياغتها وتحديدها فيما بعد بما يعرف باصطلاح الشخصية النموذجية أو النمطية Model Personality .

وإذا كان الأنثروبولوجيون يتفقون حول الدور الذي تلعبه الثقافة في تنميط الشخصية ، إلا أنهم يختلفون في تحديد موقف الفرد بالنسبة للثقافة ، ودور العملية التربوية في هذا الموقف فعندما نلاحظ مثلا أن إبرام كاردينرKardiner يركز علي دور الفرد كعامل دينامي في الثقافة تتيح له العملية التربوية أن يتفاعل مع ثقافته ويتقبل أنماطها ، فعلي العكس من ذلك تري روث بنديكت Benedict أن الفرد يولد صفحة بيضاء خالية من كافة الانطباعات ، وأن الثقافة هي التي تضع بصماتها وتأثيرها علي تلك الصفحة لتطبع فيها محددات ومعالم الشخصية من خلال الخصوصيات والعموميات الثقافية (٤).

ويعد موضوع الشخصية القومية من الموضوعات التي أصبحت تشغل بال الكثيرين من العلماء الاجتماعيين الذين ينتمون الي تخصصات وعلوم اجتماعية مختلفة . وتعني دراسة الشخصية القومية بوجه عام " دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعا في أي مجتمع للوصول الي تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات . وقد يكتفي الباحث عند هذا الحد أو ربما يسهم بمحاولاته في تفسير نشوء هذه السمات ، ومقارنة الشخصية القومية في عدد من المجتمعات " . ودراسة موضوع كالشخصية القومية ليس من الموضوعات التي يحالفها الإتفاق العام بين الباحثين ، وإنما تحظي طبيعة الدراسه فيه بوجهات نظر متباينة. فمثلا يتساءل البعض هل يمكن تمييز الشخصية القومية عن القيم وعن السلوك وعن السمات الاجتماعية المحددة ؟ ومن هنا كانت الاختلافات والفروق بين الشعوب في مسائل اللغة ، والانماط المعرفية والادراكية ، وأنماط المسئولية والسلطة ، والاتجاهات القيمية وغيرها هي التي القت بظلالها علي فهم العناصر الأساسية لحياة الإنسان في بيئته بتنوعاتها الجغرافية ، والاجتماعية والثقافية والسياسية(٥).

وتؤرخ الأنثروبولوجيا انطلاقة دراسات الطابع القومي والشخصية القومية إلي

فترة الحرب العالمية الثانية ، حيث حاول عددمن الأنثروبولوجيين - خلال فترة الحرب - دراسة وفهم المحددات الثقافية للاختلافات القائمة بين الشخصيات القومية ، وذلك من خلال التفهم الواعي للسمات العامة المشتركة . ولكن من الجدير بالذكر أنه ليس هناك خلاف بين الباحثين في أن الحاجة العملية التي أملتها المصالح السياسية لبعض الدول ، كالولايات المتحدة الأمريكية علي وجه الخصوص ، كان لها أكبر الأثر في دفع الدراسات وبحوث الشخصية القومية ، فقد أدت الحرب العالمية الثانية الي ضرورة أن يفهم الأمريكيون اليابانيين بغرض السيطرة علي الحرب وللوصول الي سلم دائم . ولذلك جمعت بعض الهيئات الرسمية الأمريكية عددا من الأنثروبولوجيين وعلماء النفس ، وطلب منهم التوصل الي تحديد سمات الشخصية القومية لليابانيين .

وتحاط دراسات الشخصية القومية بمحاذير ومحددات ومواقف تجعل من الصعب علي الباحثين الإقدام بسهولة نحو دراسة الموضوع ، لذا نجدهم ينقسمون الي رأيين أو فريقين هما :

الأول : ويميل أنصاره الي رفض المفهوم تماما ، بل ولا يقبلون شرعية استخدامه في البحوث العلمية الاجتماعية ، علي أساس ان هذا الميدان مثقل بالتحيزات الأيديولوجية ، ومزدحم بمحاولات التشويه المتعمدة لبعض الشعوب من جهة ، ومحاولات التمجيد غير المبرر لبعض الشعوب من جهة أخري .

الثاني : ويميل أنصاره الي قبول المفهوم واستخدامه علي أساس نفعه ، واسهامه في القاء الأضواء علي مكونات وسمات الشخصية القومية . علي أن يحاط هذا الاستخدام بكل الضمانات العلمية التي تكفل عدم التورط في تبني تعميمات يسندها أساس من الوقائع الملاحظة ؛ والدراسات الميدانية المتأنية.

ومع ادراكنا بتطبيق القواعد المنهجية الخاصة بالبحث العلمي في مجال دراسات

وبحوث الشخصية القومية ، إلا أن ذلك ليس بالمطلب الهين او الميسور ، فصحة التحليلات والتفسيرات التي تقدم عن سمات الشخصية القومية لشعب ما ، لايحدد محكاتها سوي المقارنة المقننة مع سمات الشخصية القومية لشعوب اخري . ويعدمنهج التحليل الثقافي في دراسة الشخصية القومية هو نقطة البداية في دراسة السلوك السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فضلا عن تركيزه علي دراسة رؤي العالمWorld View السائدة في مجتمع معين . وعلي تحليل الإدراكات والتصورات ، والصور النمطية عن " الذات" ، وعن " الآخر" ، وعلي القيم السائدة ، ولغة الخطاب ، والرمزية المعقدة لشبكة القيم والمعايير المؤثرة في تحليل الحياة الإجتماعية .

ويمكن القول أن دراسة الشخصية العربية تثير من المشكلات النظرية والمنهجية ، ماتثيره دراسات الشخصية القومية بوجه عام غير أنه بالإضافة الي ذلك ، فإن دراسة الشخصية العربية تثير مشكلات أخري علي جانب كبير من الأهمية . فهل هناك شخصية قومية عربية واحدة بالرغم من تعدد وتباين الأقطار العربية من المحيط الي الخليج ؟ وما هي الأسس التي تستند اليها هذه الشخصية العربية ؟ وإن كان ثمة شخصية قومية عربية فكيف يمكن ان نفسر الفروق النفسية والحضارية والاجتماعية بين الشخصية العراقية ، والشخصية المصرية ، أو بين الشخصية الجزائرية والسورية ... وهكذا ؟

ويمكن القول أن الدراسات والكتابات العلمية العربية التي عالجت الموضوع مازالت محدودة من جهة ، وإن وجدت فإن غالبيتها ذات طابع تأملي تنقصها امكانيات وأساليب البحث الميداني . وإن الدراسات التي تمت كانت منصبة علي معالجة الشخصية القومية لشعب عربي بعينه دون آخر (٦).

وقد توصلت بعض الدراسات الي ان الشخصية العربية تميل الي ازاحة المسئولية عن الذات واسقاطها علي الغير ، وظهر ذلك جليا بعد هزيمة يونيو

١٩٦٧ ومحاولة ارجاع الهزيمة العربية الي عوامل خارجية سعيا وراء البعد عن النفاذ الي حقيقة الأوضاع العربية الداخلية الخاصة بتنظيم المجتمع العربي ، والتي اسهمت مباشرة في تحقيق الهزيمة (٧)، وان كان البعض لايقنع بصياغة هذا التعميم ، وإنما يحاول تعميقه علي أساس ربطه بعوامل أساسية تدخل في بنيان المجتمع العربي التقليدي ، ولا تنفصل عن خصائص الشخصية الاجتماعية التي تربيها البيئة العربية المتوارثة في كل واحد منا وتنميها فيه . أما حامد عمار (٨) فيري أن الشخصية العربية شخصية " فهلوية " في نمطها العام ، تنزع الي التكيف السريع لمختلف المواقف ، وتتميز هنا بجانبين متلازمين ، الأول : المرونة والفطنة والقابلية لهضم وتمثيل الجديد ، والثاني : المثابرة السطحية والمجاملة العابرة التي يقصد بها تغطية الموقف وتورية المشاعر الحقيقية مما لايعني الإرتباط الحقيقي بما يقوله المرء ، أو بما قد يقوم به من مظاهر سلوكية . وعليه " فنحن " دائما نفعل ماهو علي صواب أما " غيرنا " حتي وان كان جزءا منا فهو الذي علي خطأ . كما تنزع الشخصية العربية الي الحماس المفاجيء والإقدام العنيف والاستهانة بالصعاب في أول الطريق ، ثم إنطفاء وفتور الهمة عندما يتبين للفهلوي أن الآخر يستدعي المثابرة والجلد والعمل المنتظم الذي لاتظهر نتائجه إلا ببطء وعلي شكل تراكمي . وعليه ينزع الفهلوي دائما الي المغالاة في تأكيد الذات والميل الملح لإظهار القدرة الفائقة في التحكم بالأمور . ومع تمسكها بقيم الحياء والخوف من الفضيحة (عند الفشل) اكثر مما تتمسك بالواقعية والموضوعية ، وبضرورة الاعتراف الصريح بالنقص لمعالجته والتغلب عليه ، فالطالب الفهلوي العربي نفسه عندما يرسب في الامتحان لايلوم الا الحظ والأستاذ ، والأسئلة الصعبة، كما تلوم " الذات " ، " الآخر " أو " الغير" فيهون بذلك علي نفسه ويحفظ ماء وجهه ، صيانة للمظاهر ، ومراعاة للمشاعر ، ورفع المعنويات ، عوضا عن أن ينفذ الي بيت الداء فيستأصله . وقد تأصلت وازدهرت

هذه الشخصية في المجتمعات التي تركز في سلوكها ونظراتها علي نمط الحياة التقليدي الإتباعي ، حيث تتوجه أنظار الأفراد وأفكارهم وردود أفعالهم نحو التقاليد العريقة والسنن السلفية والمتوارثة مما جعل الفرد في مثل هذه المجتمعات انسانا محافظا عقلا وجسدا ، يدور دوما في فلك محدود وهو فلك اتباعي يبقي القديم علي قدمه ، ويحافظ عليه لينقله الي أبنائه .

ـ الذات العربية في مفهوم الانا : المكونات البنائية :

ان طرح الاستفهام حول كنه " الذات " العربية ، نجده سؤالا لايحتمل اجابة واحدة ، في الظرف الراهن علي الأقل ، لأن الجواب سيأتي مختلفا باختلاف من يطرح عليهم هذا الاستفهام ، لاسيما وأنهم أطراف متعددة مختلفة المصالح والاتجاهات والرؤي الحاضرة والمستقبلية .

فمفهوم العربي المقيم داخل وطنه ـ من عامة الناس ـ عن ذاته بأنه المسلم الذي يتعرض لضغط واستغلال الأوروبيين غير المسلمين له . او قد يأتي الجواب بقول آخر بأنه " العربي" أي " الذات" هو أحد أفراد الأمة العربية التي جزأها الاستعمار الي كيانات فسيفسائية صغيرة مصطنعة ، وغرس في قلبها دولة صهيونية توسعية ، وكل ذلك من اجل ان يضمن الغرب مصالحه في منطقة العرب . أما مفهوم العربي المهاجر والمستقر في أوروبا عن " ذاته " فهو الشخص غير المرغوب فيه، الذي يتعرض دوما لممارسات وضغوط عنصرية ، مهما كانت نجاحاته الشخصية والعامة(٩).

أما صورة العربي في ذهن " الآخر" الاوروبي وخاصة لدي رجل الشارع الأوروبي ، والذي يتشكل وعيه بواسطة وسائل الإعلام الخاضعة لتأثيرات وتقلبات الظروف الراهنة الي جانب أشياء أخري ، فتكون صورة العربي لديه بأنه المنتمي الي منطقة يستخرج منها النفط بكثرة ، متبوع بثراء مادي شديد في

أيدي غير محافظة عليه . أو أنه الانسان المنتمي الي جماعات اسلامية متطرفة فكرا وفعلا ، او ينظر اليه علي أنه " المهاجر" الذي طرده وطنه فنبذ هو بدوره وطنه ، فراح يزاحم الأوروبي في العمل والسكن والشارع والمقهي والخدمات .

اما عن المكونات البنائية للذات العربية ، فتبدأ منذ الفترة الاولي للفتوحات الاسلامية ، والتي امتد بها الزمن الي مشارف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، حيث جاءت الرغبة الملحة في معرفة" الذات" من خلال الإلمام بما يكون عند " الآخر " ، وفضلا عن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية الذي فاق كل تصور ، انطلق الرحالة المسلمون وقد تشكلت ذهنيتهم - ولو بدرجات متفاوتة - بالشعور بالغلبة السياسية والحضارية ، وأن الانتماء الي ثقافة " الفاتح" والحاكم قد جعل - في أغلب الظن - الأسس الدينية والعرقية والحضارية معايير لوصف أغلب الأشياء ، وفي إطار مقولة " التزيين " او " التقبيح " ، وفي الحكم علي السلوكيات بما فيها من معتقدات وتقاليد وعادات يحكمها في المقام الأول أفضلية ثقافة " الذات " علي ثقافة " الآخر" . أصبح الغير أو الآخر في عموميات الألفاظ المطلقة ، هم عبارة عن " مجوس ، وموالي ، قذرون لايغتسلون ، حمير ضالة ، شياطين ، كافرون ، بهائم ، أهل عند وعناد (١٠) .

وحين انقضت الفترة الأولي للفتوحات الإسلامية ، مرت قرون عديدة ضعفت خلالها الدولة الإسلامية، وتفككت اوصالها ، وانطفأت شعلة الحضارة العربية الاسلامية المتميزة ، ليوقدها شعب آخر في مكان آخر وهو " الغرب" وفي أوروبا شمال المتوسط بالذات . وفي اطار صحوة القرن التاسع عشر والرغبة لدي المسلمين في الخروج من قوقعة الإنغلاق والإنفتاح علي ماجاء به الحملة الجدد للحضارة الإنسانية ، اتجهت " الذات " العربية ، ومن جديد الي كشف نفسها ومعرفة مكنونها من خلال النظر الي مرآة الغرب في ثوبه الجديد . فبينما تشكلت نظرة العرب القدامي الي ثقافة الغير في اطار " التزيين والتقبيح" علي اساس مفاضلة

ثقافة الذات علي الآخر ، فإن النظرة المحدثة والرؤية الجديدة أصبحت تقوم علي أساس التعلق بأهداب " الموروث " مع الشغف في الأخذ " بالمستحدث " ، ذلك ايضا ، عن طريق تقبيح " غرائبه" وتزيين " محاسنه " التي تشكل في نظر الذات العربية " رغائب " لامانع لثقافتنا من أن تأخذ بها ، وبما لايتعارض منها مع القديم او الموروث من تعاليم الثقافة العربية الاسلامية التقليدية (١١).

وهكذا يفصح هذا المسلك عن خاصية أساسية راسخة في بنية العقل العربي عبر العصور ، وهي الرؤية الذاتية للذات والتي تشكلت في عقل العربي البدوي التقليدي ، حيث مساحة العالم في ذهنه محدودة ، ولا تتعدي دياره وعشيرته ، ومن ثم فهو لايعي الا بيئته التي لايستطيع الانفصال عنها ولو ذهنيا (١٢) . وهكذا فليس للآخر وجود عنده . إلا أن الفتوحات الاسلامية قد اوجدت هذا الآخر ، فكان لابد من التعامل معه ، وفي ضوء الآخر كان الحكم والتأكيد والتمحور حول ثقافة الذات ، محاطا " بالمفاضلة " لا " بالمقارنة " (١٣) . الأمر الذي جعل أوروبا ـ وخصوصا فرنسا ـ تفكر جديا في غزو الشرق ، وبدأ الاستعمار الغربي للشرق بالحملة الفرنسية علي مصر عام ١٧٩٨ . ورغم اعتراف اوروبا بتأثير التراث العربي في الحضارة الغربية إلا أنه ساد اتجاه نحو طمس هذه الحقيقة التاريخية إو التقليل من شأنها . بل وتأكيد الغرب علي عجز العرب والمسلمين عن الابتكار والإبداع والإسهام في ركب الحضارة ، الأمر الذي يجعل من " التغريب" أمرا ضروريا لمواكبة تطورات العصر الحديث . ولعل من أحد الأسباب الآخري أن المسلمين والعرب ذاتهم ، او النخبة المثقفة منهم ، قد اقتنعوا بهذه الفكرة ، ورأوا في تراثهم عبئا ثقيلا يجب الإبتعاد عنه قدر الإمكان ليتمكنوا من الحياة علي الطريقة الغربية .

ولكن رغم ذلك ، فإن أهم مايميز الذات العربية في كل عصر من العصور هو كفاحها المستمر لاستعادة هويتها بعدأن منيت بمزيد من التجزئة والتعقيد ، ومن

هنا يكون الإهتمام في دراسة الذات منصبا علي مسألة التنوع والتجانس في الهوية العربية ، والتي عاشتها كحالة من الصراع بين عوامل الوحدة والتجزئة ، فنجد من الضروري الوقوف علي حالة التداخل والمواجهة والتضاد في آن معا . وذلك علي عكس المنهج السكوني المتبع عادة ، والذي يدرسها منفردة ، فيشير الي عوامل الوحدة العربية المشكلة " للذات" علي انها اللغة ، والثقافة المشتركة ووحدة التجارب التاريخية ، والتكامل الاقتصادي والجغرافي ... الخ . وهناك عوامل التجزئة فيكون المتهم الأول فيها كل من الإمبريالية ، والإنتماءات الطائفية والإثنية ، والقبلية والإقليمية ... الخ .

وهكذا يكون الحديث عن الذات العربية ومكوناتها البنائية حديثا ليس سهلا في تاريخيته ، ومجاليه البشري والإجتماعي ، وإذا كان الأمر يبدو هكذا في كليته وشموليته ، فإن المهمة ستكون أصعب إذا ماقترينا من الحديث عن جزئيته او أجزائه المكونة له . فمصر مثلا ، حيث بناء الذات وارتباطها بتراث متنوع من الحضارات والهوية منذ فجر التاريخ ، ففي الوقت الذي كان فيه العالم يعيش في تيه الواقع وغيبه ، كان المصري القديم ومنذ بداية عصر الأسرات يرسي لبنات حضارة التنوير للعالم أجمع . فلم يعد خافيا علي أحد أن علوم الأغريق التي عرفتها الدنيا ليست من ابتداعهم ، ولكن أولئك الذين كان بهم ظمأ الي المعرفة والرحلة في سبيلها ، أتوا الي مصر ... وعلي هذه الأرض رأوا المصريين في مواقع العمل وراعهم مارأوا . فوجدوا القواعد الأولي في الرياضيات ، كما تخرج في المعهد اليوناني الروماني علي يد مدرسة الاسكندرية(١٤) علماء العالم القديم في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلية والهندسة والفلك. وفي مجال العلوم أسست مصر القديمة علم وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح ، وهي صاحبة نظرية الذرة ، وواضعة تذكرة الطب المشهورة باسم تذكرة " كرنيليوس كلسوس " فظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة حتي القرن الثاني عشر . كما وضعت

مصر المسيحية غالبية المصطلحات الطبية ، فتتلمذ عليها " جالينوس " ، وشهد لها " نيتولتسكي" في كتابه الطب الشعبي المقارن .

واذا كان بعض المصريين في العهد البطلمي قد " تأغرقوا " في محاولة ارتقاء طبقي ، فإن الإغزيق بدورهم قد تأقلموا بالقدر نفسه فتعلموا اللغة المصرية ، وعبدوا آلهة مصرية ، كما اتخذوا أسماء مصرية، وعادات مصرية . ويكفي القول أن متحف العلوم في لندن يؤصل ويشير الي ان جميع الصناعات تبدأ بقدماء المصريين كالنسيج ، والفخار ، والزجاج وغيرها .

فإذا كانت العلاقة بيننا وبين أوروبا قد تجذرت تاريخيا إلي هذا الحد ، فإن العلاقة بأوروبا وحوض البحر المتوسط ، ليست إلا ترجمة عمل يبتغي، فهو قائم بالفعل لاجدال في ذلك ، وإنما العلاقة يحكمها اطار نفسي في المحل الأول . والدليل علي ذلك إسراع الأزهر بتلمذة أبنائه ودارسيه علي أيدي أساتذة اوروبيين . ولكن التعامل مع أوروبا يميل دائما الي شيء من المحافظة اجتنابا للطفرة ، واشفاقا من الجموح ، وامساكا للتطور في حركة معقولة هادئة تمكننا من أن نرقي عن روية وفهم لا عن تهور واندفاع.

- الذات العربية في مفهوم الآخر : رؤية تحليلية :

اهتمت كثير من الدراسات والمدارس العلمية الأنثروبولوجية بدراسة مجتمعات وثقافات البحر الأبيض المتوسط (١٥) وركزت تلك الدراسات في عمومها علي دراسة المسح الشامل للمجتمع والثقافة ، والذي يشمل الإيكولوجيا ، والرعي والزراعة ، والهجرة والتحركات السكانية ، والاسواق والتجارة ، والتمثيل السياسي ، والثروة والتمايز الطبقي او العرقي ، وقيم الشرف ، والمرأة ، والضبط الاجتماعي ، والبيروقراطية ، ثم دراسة التصنيف القرابي والعائلي ، وروابط الدم وأنماط الزواج ، والأبوية ، والعرف، والتنمية والتغير ، والاستمرارية ، والأنساق

المعرفية ... الخ . ولا شك أن هذه الدراسات قد أسهمت بدور كبير في تحليل عناصر الثقافات البحرمتوسطية ، وتبيان مدي مابينها من تماثل واختلاف .

أما في بحثنا الراهن فيكون الطرح مختلفا ، وكذا المعالجة ، لاسيما وأن الاتجاه المنهجي الذي التزمت به هذه الورقة البحثية ، إنما يسعي الي استخلاص رؤية View كل من الطرفين تجاه الآخر، وأثر تلك الرؤية او المشاهدة في بنية العلاقات والمكونات التاريخية والثقافية لكل منهما .

فنظرة الغرب الي الإسلام كانت تراه منذ العصور الوسطي عقيدة هرطقية والعرب كفارا ، في الوقت الذي كانت فيه مقدسات المسيحية الرئيسية في الشرق في يد المسلمين محافظين عليها . ورغم ذلك ، وبناء علي دعوة من السلطة البابوية شن الصليبيون في مطلع القرن الحادي عشر حربهم مدفوعين بحماس ديني عماده الأساسي معاداة الاسلام وهدفه تحرير الأراضي المقدسة . فكانت استعادة القدس من أيدي الصليبيين وتحريرها بقيادة صلاح الدين الأيوبي في عام ١١٨٧ بداية تحرير العرب .. وعندما بدأت أوروبا عصر العلمنة لم تساعد علي القضاء علي الشعور المعادي للإسلام ، وإنما اصبحت العلاقة بين الغرب والشرق الأسلامي قائمة علي أساس السيطرة والاستغلال .

وعندما بدأ عصر الإستشراق نظر الغرب الي الشرق العربي علي انه عالم تابع يفتقد الي الاستقلال ، والهوية المميزة ، وهو كيان يجب أن يخضع لسيطرة الغرب . وبذلك يصبح الاستشراق نظاما علميا ونظرية تعطي معني لعالم غير كامل الوجود (هو الشرق) ووسيلة للسيطرة عليه ، فتعمقت جذور الفصل بين الشرقيين والغربيين ، والتي نمت وترعرعت وفق معايير عنصرية واضحة ، فالغربيون "عقلانيون ، مسالمون ، ليبراليون ، منطقيون ، قادرون علي امتلاك قيم حقيقية بدون شكوك او أوهام" بينما الشرقيون (أي العرب) لايمتلكون أيا من هذه الصفات الحميدة وقد اعتبر المستشرق البريطاني الأنثروبولوجي إدوارد

وليـام لين ، أن الدين في الشـرق هو مـصـدر العـادات والتـقـاليـد والممـارسـات الأصولية(١٦) ، متجاهلا كافة النظم العائلية والطبقية والخاصة ، وأكد علي أن العـرب هم شـعب شـديد الإعـتـقـاد بالخرافات وليس بينهم من هم أكـثـر اعـتـقـادا بالخرافات من شعب مصر . وأن الكثير من خرافاتهم تشكل جزءا من دينهم .

ومن المعروف أن قـولبة العرب في صـور نمطيـة في ذهن الأوروبي كـانت تنمط وما تزال وفـقـا للأحداث والمواقف التـاريخيـة والسـيـاسـيـة والقـومـيـة التي تبـرر توكيـدها ، فـمثـلا كانت صورة العرب قبل وجود او تواجد دولـة اسرائيل مـقـترنة بالإبل ، والفتيـات الراقصات ، والصـحراء ، وقطعان الرعي ، والفروسية البدوية الرومـانتيـكيـة . أما بعـد تواجد دولة اسرائيل واندلاع الصراع العربي الاسرائيلي فـأخذ العربي يصور علي أنه ، رجعي ، مـتـعـصب ، مـاكـر ، كـاذب ، لاذمـة له ، نهم جنسيـا وكسول . وبعد حرب ١٩٦٧ أضيف الي صورة العربي النمطيـة ، " الهارب ، الجبان ، أما الزعماء ففاسدين ، غوغائيين ، متعصبين ، ومتهورين " . وفي أثناء حـرب الاستنزاف بين العرب واسـرائيل اضيـف الي صـورة العـربي انه " الإرهابي ، المتعـصب ، المتعطش للدماء " . أمـا بعـد حرب ١٩٧٣ وحظر النفط فـقد برزت صـورة أخري هي صـورة الشيخ النفطي الغني الذي يـسيطر علي نفط العالم ويحاول قطع الشريان الحيـوي للوقـود عن الغرب الصناعي . وهنا أضـيـفت الي النمطيـة صـفـات وصـور أخري هي " المبـتـز ، الشرير ، المخرج الوحيـد علي مسرح النفط ، المدمر للحضارة..".

ومن الطريف أن صـورة العـرب لدي الأمـريكيين وخـاصـة النشء الأمـريكي لاتخـتـلف عن صــورة العــرب لدي الأوروبيين ، والدليل علي ذلك ان بيــجي الكسندرPeji Alexander مدرسة مادة التاريخ في منطقة ساكرامنتو بولاية كاليفورنيا سألت تلاميذها الصغار في ربيع عام ١٩٧١م " ماهو انطباعكم عن الشخص العربي ؟ " فأجاب الصغار :(١٧)

- العرب لايرتدون ملابس داخلية .
- إنهم جميعا بدو رحل مثل الهيبيين .
- معظم رجالهم ملتحون .
- كل العرب لهم زوجات كثيرات .
- الجمل هو وسيلة النقل الوحيدة .

علما بأن هذه التشويهات والمفاهيم المغلوطة لاتقتصر علي النشء والصغار فقط ، وإنما يغرس بها في أذهان طوائف وفئات المجتمع ككل .

أما مفهوم العربي وادراك الذات العربية في ذهن كل من المثقفين العرب والأوروبيين علي السواء من مؤرخين وعلماء اجتماع وانثروبولوجيا ، وسياسيين وتكنولوجيين .. وغيرهم ، فسوف يتبلور في مستوي آخر من الإجابات ، ولو أنها آشد تركيبا وتعقيدا عما سبق ، ومؤداها أن " العربي" هو المنتمي الي منطقة العرب ، والتي كانت بمثابة الجسر الذي انتقلت عبره الفلسفة والعلوم اليونانية ، مع ماأضافوه من ابتكارات اليها .

وعلي أية حال فإن أسئلة كثيرة ستطرح من بينها : كيف يمكن توفير معلومات أفضل أمام الغرب عن العالم العربي ؟ وما هي جوانب الحياة العربية التي يتجاهلها الغرب او يسيء فهمها ؟ و ما هي آفاق التعاون ، فمثلا الغرب يحتاج النفط العربي والموارد المالية العربية والأسواق العربية ،وبالمقابل فإن العالم العربي بحاجة الي التكنولوجيا الغربية ولمزيد من الخطوات في مضمار التحديث ؟ وماذا عن الحضارة العربية والثقافة العربية التي ثبت أن الغرب يجهلها بشكل فظيع ؟

ومع ذلك فإن تشويه صورة العرب أصبح جزءا من التراث الشعبي الغربي وبات يمنع اقامة أية علاقة من الثقة والصداقة بين العرب والغربيين ، والأمثلة

الدالة علي أدوات التشويه كثيرة نذكر منها الصورة النمطية " للعم عبده" ، والتي ترسخت في أذهان الغربيين وخاصة النشء علي أنه العربي " المخرب ، الأحول ، ذو الأنف المعقوف ، القذر ، المقطب الحاجبين " ، فضلا عن أنه ينتمي الي جماعة متوحشة ، جبانة ، منحطة ، خادعين ، غدارين ، فهم شيوخ صحراء أثرياء نفط يملكون الجمال وسيارات الكاديلاك ، وأحيانا كثيرة تكون سيارات كبيرة سوداء مترفة بداخلها أشباح سوداء تري من في الخارج ولا يراها أحد. فالعربي في نظر الغرب مستمريء لحلقات العبيد، مولع باستغلال العذاري الأوروبيات ذوات الأربعة عشر ربيعا أو أكبر من ذلك بقليل . وأهم مافي رسم الصورة النمطية للعربي أنه غير مكتفي بحريمه ، بل بدأ يفرض علي الشقراوات الغربيات وغيرهن أن ينضممن الي قافلة الحريم ، فهو متخلف مجنون جنسيا . وهكذا خلق التواتر المكثف من التشويه تشبعا بالإنطباعات والمشاعر المعادية للعرب . بينما يتغاضي الغرب عن تصوير العرب علي أنهم فنانون ، وشعراء ، ودبلوماسيون ، ورجال دولة ، وفلاسفة، وحرفيون، وزراعيون ، وعمال بناء ، ورجال مصارف ، وعلماء ، ورجال أعمال ، ومدرسون ، ورجال قانون ، وأفراد عائلات عاديون .

ولا شك أن اجابات ، ووجهات نظر ، ورؤي مختلفة كهذه يعدأمرا طبيعيا لاسيما أن الإستفهام المطروح ينبش في مثيرات وبواعث " الهوية الذاتية " ، والهوية بطبيعتها تتحدد معالمها ومقومات بنائها في ضوء المكونات البشرية والنظم الاجتماعية ، والعناصر الثقافية ، ومن هنا تكون المحصلة أن الهوية "شيء" يتشكل ، ثم سرعان مايتجذر في الفكر والوجدان ، وهنا ينشأ الإنسان وينمو ثنائي النظرة ، نظرة الي " الذات " ، ونظرة تجاه " الآخر" .

فإذا كانت " ذات" الأوروبي قد كشفت عما بداخلها تجاه " الآخر" العربي ، في بعض المفاهيم التي طرحناها سابقا ، فإن الأمر سيكون بصورة مختلفة إذا

ماعكسنا التساؤل وطرحناه علي العربي ، وقلنا إذن من هو الأوروبي ؟ .. وهنا لاشك أن اجابات مختلفة في الرؤي والإدراك سوف تأتي ، مثلا ، الأوروبي رجل مستعمر ، هو انسان مادي تحكمه مصالحه ، او قد تكون برؤية اخري مثل الاوروبي صانع للتاريخ الحديث والمعاصر ، وناشر للعلم والتكنولوجيا ، ومبشر بالحرية والديمقراطية ، كما لانستبعد مطلقا وجود رؤية ثالثة مفادها أنه لايوجد انسان اوروبي يقابل مفهوم الانسان العربي ، بل هناك الايطالي ، والفرنسي ، واليوناني ، والانجليزي .. وهكذا (١٨) . لكننا نجد رؤية رابعة تعترض وتدحض ماسبق ، مشيرة ومؤكدة علي أن اوروبا ليست مجرد قارة أو تجمع مكاني بل هي حضارة وتاريخ ومشروع كيان موحد يتحقق الآن عبر السوق الأوروبية المشتركة .

وفي النهاية نستطيع الإلمام ـ وبإيجاز ـ بالفوارق الرئيسية بين العربي " الذات " ، وبين الأوروبي " الآخر" فالعربي مشروع مؤسس علي وحدة اللغة والثقافة في نظر الآخرين علي الأقل،أما الأوروبي فهو مشروع مرتكز علي الإقتصاد وقيم المصالح الأساسية ، فالعربي ليس وجودا جامدا أو هوية ثابتة ، إنه مشروع يتشكل ويصيّر باستمرار ، ولذلك فأن يكون الانسان " عربيا" وليس فقط مغربيا او مصريا او سوريا ... الخ هو أن يكون " عروبيا " أي نزوعيا نحو تعزيز وتحقيق الوحدة الثقافية العربية المدعمة في قيامها بوحدة اقتصادية ونوع ما من الوحدة السياسية . وهنا يكون " العربي" من خلال هويته قادرا علي رد الفعل ضد " الآخر" وحالما إلي تأكيد " الأنا" أو " الذات" بصورة أقوي وأرحب .

ـ القيم المجتمعية ومحاكاة نموذج الآخر : حالة المجتمع المصري :

تعد القيم مفاهيم جوهرية هامة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهي تمس العلاقات الانسانية بكافة صورها ، لأنها في حقيقتها ضرورة اجتماعية ، تنطوي علي معايير تحقق أهدافا معينة واضحة ،

لايخلو منها أي مجتمع منظم سواء كان متخلفا أم متقدما . فهي تتغلغل في نفوس الأفراد أثناء تنشئتهم الإجتماعية وإكسابهم حساسية إجتماعية ، تجعلهم يخشون من يعاشرونهم ويتعاملون معهم . فالقيم علي هذا الأساس مفيدة للإنسان ، فهي تدفعه الي كل مايجلب له المنفعة ويبعد عنه المضرة ، فهي أفكار إعتقادية متعلقة بفائدة كل شيء ، من وجهة نظر من يحملها في ذهنه ، فتصبح دوافع لسلوكه الاجتماعي مع غيره من الناس . وتختلف القيم بالنسبة للثقافات المختلفة ، بحيث يصبح مايعد في ثقافة ما قيمة ايجابية ، يعتبر في ثقافة اخري قيمة سلبية (١٩) .

وهنا يكون لكل ثقافة نسق من القيم خاص بها يختلف عن نسق القيم السائد في الثقافات الأخري ، فليس من حق الباحث الإثنوجرافي أن يحكم علي نسق معين من القيم ينتمي الي ثقافة معينة بأنه أسمي أو أدني من نسق آخر . وهذا معناه أن أي عنصر من عناصر الثقافة السائدة في أي مجتمع معين يجب أن ينظر اليه في ضوء بقية العناصر والسمات والمكونات الآخري ، وكذلك في ضوء الظروف والأوضاع الاجتماعية السائدة في ذلك المجتمع ذاته دون غيره من المجتمعات . اذ من المسلم به أن مايتقبله شعب معين كعنصر من ثقافة قد يرفضه شعب آخر .

وعليه لابد من تحليل الثقافة علي أنها متصلة بالواقع ومنبثقة عنه ، فلا يمكن دراستها بمعزل عن بعضها البعض ، ولا بمعزل عن مقوماتها المادية والاجتماعية والاقتصادية . وهنا نؤكد علي العلاقة القائمة بين الثقافة ومقوماتها وعناصرها وما اشتملت عليه من قيم مستمدة مباشرة من أنماط وسلوكيات معيشية واقعية ، وبين المجتمعات المقصودة او المعنية ، وهي المجتمعات العربية او " الذات " العربية ، والتي يمكن صياغتها في نموذج قيمي علي الوجه التالي :

- قيم بدوية وريفية مستمدة من تفاعل البدو وأهل الريف مع بيئاتهم فترسخت

لديهم قيم العصبية (في التضامن والتماسك الداخلي ونصرة القريب والإفتخار بالنسب واحترام الأهل والثأر والشرف) ، وقيم الفروسية (في الشجاعة والبأس والبسالة والإقدام والإعزاز والإباء والشهامة). وقيم الضيافة (في الكرم والمروءة والنجدة وحماية المستجير والوجاهة) ، وقيم الحرية الفردية(في الأمانة والصدق والتعالي علي الإستخدام والإباء النفسي) ، وقيم المعيشة (في البساطة والفطرة والخشونة وصفاء النفس والتعفف والحشمة) ، وقيم الأرض (في محبة الطبيعة والخصب والجمال والثبات والصبر والأمل)، والقيم العائلية (في الأمومة والأبوة والآخوة والتكاتف والشرف والثأر والعفة والحشمة والنسب)، وقيم قيمية (في المثابرة والصبر والجيرة والمفازعة والتعاون ، والتمتع بالمعشر والمسالمة)[٢٠] .

ـ قيم حضرية ، ارتبطت ارتباطا مباشرا بنمط المعيشة في المدينة وهي قيم تنزع نحو النجاح والطموح والسعي والربح والكسب المادي والرفاهية والإقتباس ، واستحداث طرق الإقتناء والملكية والاستهلاك والاعتماد علي الذات ، والتمسك بالمؤسسات والنصوص الرسمية ، والقيم العمودية (في التسلط والتعالي والمكانة والوجاهة) بدلا من القيم الأفقية (في الزمالة والصداقة والآخوة) هذا فضلا عن النزوع نحو التنافس والرغبة في فرض النفوذ أحيانا .

وهذه التغيرات والمستجدات في القيم لايمكن فهمها ـ علي حد قول الانثروبولوجيين إلا إذا ردت الي عناصرها الأولية المكونة والمشكلة لبنائها الإجتماعي الكلي الأصيل بدلا من اللهث وراء التفسيرات التي تربط النتائج بالعلاقات مع الثقافات الأخري [٢١].

واذا كان للذات العربية خصوصيتها في القيم ومفاهيمها ، والثقافة وعناصرها إلا أن أهم ماتميزت به الذات العربية ـ خصوصا ـ في الآونة الأخيرة هو أزمة الفكر والثنائية التي تواجه العقل العربي . ورغم ان دور العرب والمسلمين عامة في تطورات الفكر والمعرفة والعلوم لاينكره اي باحث موضوعي سواء في الشرق ام

الغرب ، وأن نشوء العلم التجريبي الحديث والاستقراء في علوم الفلك والطب والرياضيات والكيمياء والآلة والهندسة ، والفيزياء ، والنبات والبصريات (٢٢) ، لم يكونا من اضافات الحضارة الغربية ، وانما كانا امتدادا لما بدأه المسلمون والعرب أبان نهضتهم .

ورغم ذلك فإن الاستفهام دائم التكرار والطرح في كثير من المقالات والندوات والدراسات ، وهو؛ لماذا توقف العقل العربي عن الإسهام الفعال في الثورات الصناعية والعلمية والتكنولوجية التي انطلقت خلال القرون الثلاثة الأخيرة ؟ ولماذا تحول العرب والمسلمون بصفة عامة ، الي قوة جامدة تكتفي باستيراد منجزات " الآخر" من هذه الثورات ، وتنبهر بما يحققه المتقدمون في شتي الميادين العلمية والتكنولوجية، وتكتفي بالحديث عن أمجادها القديمة دون تجديد لتلك الأمجاد ؟ ومع ذلك تتخذ لنفسها في اطار ثنائية الفكر القائمة علي " التفضيل" لا " المقارنة " مع الآخر ، صورا دفاعية متعددة (٢٣). وفي تقديرنا ماهي الا دفاعات تحمينا ـ او قل ـ وتطمئننا وتواسينا عن حالة التخلف التي نعيشها مرتدين في ذلك ثوب الثنائية الفكرية التبريرية لمفهومنا عن الدين والدنيا ، العقل والنقل ، الشمال والجنوب ، الجهل والعلم ، يدعمنا في ذلك استبداد الحاضر وهشاشته ، وسلطان الماضي وجمود تراثيته .

لكن قضية الذات العربية وموقفها من العلم الحديث ، كيف تجعل العلم وتنظر اليه وتستخدمه علي أنه قوة انتاجية ، كما فعل الغرب في نظرته الي قيم العلم، والذي يري فيه (الانجاز ، والإكتشاف ، والإختراع ، والتفوق ، والتقدم ، والتنافس ، والسرية ، والبراءات ... الخ) من اجل الأخذ والإمساك بأسباب الحضارة ، بينما وجدنا أنفسنا مستخدمين للعلم وأدواته فقط في القضاء علي الجهل والأمية ، دون أن نجهد أنفسنا عناء الخروج من دائرة الثنائية الخاصة (بالجهل والعلم)، فنظرنا الي العلم علي أنه " نور" ، وأن دوره التنويري هو فك

رموز الأبجدية ، وأن الجهل " ظلام" وهو عدم القدرة علي فك رسوم الأبجدية وطلسمها . وهكذا تمحور إدراكنا للتعليم في قيم الإستخدام لا في قيم الإبداع والإبتكار والإضافة .

ورغم ذلك كان لابد ان تضع الذات العربية قضية العلم في جل اهتمامها ، مع تقديرنا أن تحقيق وانجاز هذا الاهتمام كمهمة كبيرة يتطلب شروطا اجتماعية وسياسية وتنظيمية جذرية ، لاسيما وأن تكنولوجية العلم بطبيعتها محملة بالقيم وفاء لمطلب اجتماعي تولد في ظروف تاريخية معينة يمر بها المجتمع المنتج. ومن هنا جاء الدور المصري باعثا لروح الإتصال مع أدوات العلم والمعرفة ، ومزيلا لكل او بعض اسباب القطيعة الأبستمولوجية بين الذات العربية ، وغيرها من المعارف ، فجاءت مرحلة الإتصال والانفتاح علي " المجتمع المدني " شمال البحر المتوسط بدءا من الحملة الفرنسية علي مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، مرورا بمرحلة النهضة واليقظة في عهد محمد علي ، وحتي بعثات الأزهر التعليمية لتلاميذه الي مجتمعات الغرب . ولما كانت مصر هي النموذج الرائد في تحديث القيم بما فيها العلم وأدواته، ولما لها من تأثير واضح البصمات علي غيرها من المجتمعات العربية ، فإننا نركز علي " حالة المجتمع المصري " كجزء هام وفاعل في الذات العربية ، وعن دوره في تأسيس المجتمع الحديث ، وفي نظرته الي القيم الثقافية الغربية ، ومن أهمها قيم العلم وأدواته ، وقيم الحرية والديمقراطية ، وبناء الإنسان المعاصر .

وقد ساعدت النهضة العربية التي ارتبطت بتأسيس الدولة الحديثة في مصر علي ظهور نموذج غير تقليدي من رجل الدين هو الشيخ العقلاني المستنير (رفاعة الطهطاوي ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) الذي غدا مستعدا لمواكبة حركة الدولة الحديثة في خروجها علي المفهوم التقليدي القديم للحكم ، وتأسيسها معني المواطنة الذي يتخذ من النموذج الذي طرحته الدولة المدنية الأوروبية مثالا له في

الحقوق والواجبات . كما واكب ظهور هذا الشيخ تحديث أنظمة التعليم ، وعلاقات المثاقفة ، ووسائل انتاج المعرفة ، وتوزيعها ، كان حضوره عنصرا فاعلا في أفق متغير من العلاقة بالآخر في المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية ، خصوصا فيما يتصل بتراكم المعرفة الناتجة عن الترجمة ، واتساع الخبرة الناجمة عن المشاهدة والمعايشة ، وتغير الوعي الذي أخذ يتمثل مفاهيم الدولة الحديثة ويستوعب معها ضرورة فصل السلطات وأهمية الأنظمة الدستورية التي تقوم علي المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات (٢٤).

وإذا كان طبع كتاب " تخليص الأبريز " قد تم بعد تسعة وعشرين عاما من بداية الحكم المطلق لعهد محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) فقد كان عام طبع الكتاب نفسه استهلالا لمقدمات تغير الحكم المطلق وبدايات أفق الشوري الحديثة، ففي العام نفسه الذي طبع فيه رفاعة كتابه ، ألف محمد علي مجلسا اسمه " المجلس العالي " يتشكل من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من ذوي المعرفة بالحسابات ، واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الأزهر ، اضافة الي اثنين من التجار ، واثنين من الأعيان ينتخبهما الأهالي عن كل مديرية من مديريات القطر المصري . ثم أصدر محمد علي قانون " سياستنامه" في عام ١٨٣٧ وضمنه نظام الحكم في البلاد مجاراة منه لأنظمة الدولة المدنية الحديثة في أوروبا. وسواء رددنا مافعله محمد علي وأقدم عليه الي رغبته في الإصلاح أو إلي حرصه علي محاكاة الدولة الأوروبية المتقدمة ، فإن الدلالات الأساسية لهذا كله لاتنفصل عن سياق تحديث الدولة ، وما ارتبط بهذا السياق من تغير في علاقات المثاقفة أو التثقيف بين " الذات" و " الآخر" . وتبلور كل هذا في " تخليص الأبريز" وفي صياغة نموذج يرمي الي أن العدل أساس العمران ، والشوري أساس الحكم الصالح ، والأمة مصدر السلطات ، وكيف يمكن أن يكون " الآخر" الأجنبي مصدرا للفائدة .

وفي هذا الكتاب تنطوي الدلالات الأساسية علي كشف علاقة نموذج " الذات " " بالآخر" المغاير في الثقافة والقيم من نايحة ، وتقليل مفهوم المجتمع المدني الحديث عن هذا " الآخر" من ناحية أخري . وهنا يكون المعيار القيمي الذي انطلقت منه الناحيتان واحد ، وهو " تخليص الأبريز " أي " الذهب " من المعادن أو الأوشاب التي تختلط به (٢٥) ، ومن ثم استخلاص عنصر القيمة من حضارة الآخر ، وبما يتناسب ودوافع الذات القومية وخصوصيتها وتراثها ، وصولا الي جوهر " الذهب " الخالص النافع من كل ماترمز اليه هذه المدينة " باريز " .

وهكذا انفتح السبيل في كتابات رفاعة الطهطاوي الي افكار المجتمع المدني ليس بوصفه نقيضا للدين، وإنما بوصفه مجتمع المؤسسات القانونية ، ومن هذا المنطلق تقبل رفاعه معني الدستور ، فنظر اليه علي أنه تعاقد مدني ، يتحقق في كل أمة لها طابع النظام والإستقرار ، وتقبل معناه بوصفه (الشريعة) البشرية التي تنظم أمور الدولة المدنية ، وتفصل بين سلطاتها ، وتصون كل أطرافها . وهنا نجد رفاعة يقوم بترجمة الدستور الفرنسي الصادر في عام ١٨٣٠ الي العربية ويسميه " الشرطة La Charte " ويدعو الله أن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم . لأن في ذلك دليل عقلي علي إمكان وصول أبناء الأمة الي عقد اجتماعي يحقق لهم التقدم . كما يأمل في إقامة علاقات "مثاقفة " بين " الذات " و " الآخر" تؤدي الي تطبيق العلوم والفنون النافعة علي طريقة الأفرنج من تقدم وازدهار ورقي في بلاد المسلمين في مجالات الصناعة والزراعة والاقتصاد والادارة والصحة والتعليم والثقافة والآداب العامة والعلاقات العامة وغيرها .

- قيم العلم والنموذج الغربي :

إن العلم الحديث النامي والمبهر في أوروبا ماهو في حقيقة الأمر سوي " طريقة " و " اسلوب " ، أي اسلوب التفكير المنظم والمنتظم ، وأدوات من " طرائق "

البحث العقلي المرتب ، استنادا الي عالم المحسوس ، لأنها - كما يقولون - لاتعرف الحياة إلا في عالم واحد ، وهنا نجد أنفسنا غير متعايشين ولا متقبلين لهذا الواقع ، فنريد الهروب الي " ذاتنا " الي بلداننا ، تلك البلدان التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية ، وارتقت الي قمم " العلمين // " .

ان النموذج للتعليم العام في القراءة والكتابة ، وقيم الحرية والديمقراطية وحق التصويت ، والإنضمام الي البرلمان ، ماهي إلا أفكار أوروبية ، قد أصبحت لدي الشرق المعاصر اليوم بمثابة المباديء الثابتة التي يؤمن بها الشرقيون إيمانهم بل أكثر من إيمانهم بمباديء الأديان . وأنه لمن السهل أن تقنع شرقيا اليوم بأن تدينه فاسد ، ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن الديمقراطية اكذوبة ، أو ان التعليم العام لرموز الكتابة هراء ، والأكثر من ذلك فإنك تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرقي عظمة " السماء " ، لكنك لاتستطيع مطلقا أن تقتلع منه عظمة " العلم الأوروبي الحديث (٢٦)" .

ليست الحضارة الأوروبية - كما يقال عنها - مادية مسرفة في المادية لاإتصال بينها وبين الروح ، وعليه فهي كما يصورها غيرها تكون مصدرا للشر والشقاء الذي لايصيب أوروبا والعالم الغربي فقط ، بل ويشقي به العالم كله أيضا . وإنما من الحق القول أن الحضارة الأوروبية الحديثة عظيمة من المادية ، ولكن من العقم القول أنها قليلة الحظ من المعاني السامية التي تغذو الأرواح والقلوب ، وبالجانبي معا ارتقت الي العلم الحديث ، والي المخترعات ، والي الفنون التطبيقية الحديثة والي المكتشفات التي غيرت وجه الأرض ، وحياة الانسان . وهنا يكون من الإجحاف القول بأن هذه الحضارة إنما صدرت عن المادة الخالصة .. انها نتاج العقل والخيال والروح الخصب المبدع الممزوج بالروح الدافعة الي التفكير المؤدي الي الانتاج ، ومن ثم استغلال هذا الانتاج . وتلك الحضارة لم تصل الي هذا بالطريق السهل ، وانما ضحت ، وتضحي كل يوم بالكثير من الأنفس والأموال في سبيل

تقدم العلم ، وفي سبيل السيطرة الطبيعية .

وقديختلف الأوروبيون في أشياء كثيرة ، ومنها أنهم مسيحيون في ظاهر أمرهم ، لكن مسيحيتهم ألوان ومذاهب ، ومع ذلك لم يمنعهم اختلافهم المذهبي الديني من ان يتفقوا في أسباب الحضارة ونتائجها. بل الأكثر من ذلك أن منهم من لايتخذون المسيحية دينا ، ومنهم من لادين له . ولكن هذا كله لايمنع من الاتفاق والالتفاف حول أسباب الحضارة والعلم والاستمتاع بما وصلت اليه من نتائج وثمار . كما لايغيب عن اذهاننا أن الحضارة الاوروبية الحديثة ورقي العلم بها لم يسلما من الصراع والخصومة العنيفة والمتصلة مع المسيحية الأوروبية ، لكنها في نهاية الأمر انتهت الي شيء من التوازن بين الدين والحضارة، وان العل الأوروبي المستقيم ادرك ان الخصومة العنيفة الآثمة لم تكن بين الدين والحضارة في حقيقة الأمر، وإنما كانت بين الذين يمثلون الدين ، وبعض الذين يمثلون الحضارة .

واذا كان العلم أحد مكونات وعناصر الثقافة، فإن من عناصر الثقافة ماهو شائع عام مشترك بطبيعته بين الشعوب جميعا ، وقد يلاحظ ذلك في كثير من ألوان ومجالات المعرفة والعلم . ومن عناصر الثقافة ماهو خاص وذاتي بطبيعته . وحري بنا أن نقول أن نموذج الغرب في قيم التعليم وأدواته كان ولا يزال شغلنا الشاغل في الإقتداء والاقتباس ، بل وتلمس الطريق الي المحاكاة ، وأن تلك المحاكاة لم تكن قاصرة علي الأدوات المنهجية والفنية في التحصيل والإلمام بالخبرة والتجربة ، بل امتدت الي الشكل قبل ان تلم بالجوهر . ونؤكد علي ذلك من خلال مانقتبسه من طه حسين حين يقول " ان وزارة المعارف تريد أن تكون المدرسة الأولية بناء علي الطراز الأوروبي الحديث ، فهي إن ارادت أن تنشيء مدرسة فكرت قبل كل شيء في البناء الصالح لتستأجره أو لتقيمه ، ثم فكرت في تأثيثه الحديث ، وأنفقت في هذا كله مقدارا غير قليل من المال ، وأكبر الظن أن ماتنفقه وزارة المعارف في بناء مدرسة وتأثيثها يكفي لإقامة مدارس وتأثيثها ،

اذا نظرت الوزارة الي هذا الأمر نظرة مصرية معقولة ، لا نظرة اوروبية غالية. فالبأس كل البأس في التأنق والإسراف فهو يباعد بين البيئة المدرسية ، والبيئة المنزلية مباعدة خطرة علي الأخلاق والنظام جميعا . فهذا خليق أن يزهد الصبي في حياته المتواضعة (٢٧) .

أما هندسة التعليم في مصر والتي تم تأسيسها علي غرار النظام الأوروبي ، فتعود الي الجهود التنظيرية والعملية التي قادها رائد التحديث في مصر علي مبارك ، والتي ضمنها في وثيقته الشهيرة التي عرفت باسم " لائحة رجب " [٢٨] والتي صدرت في ١٠ رجب ١٢٨٤ هـ الموافق ٧ نوفمبر ١٨٦٧م . وهي اللائحة التي تشكلت من مقدمة وخاتمة وأربعين مادة في ثلاثة أقسام حاولت في مجملها ان تنقل المدرسة الحديثة بنظامها الاوروبي الي المدن الصغيرة ، والقري المصرية بدلا من أنتقال التلاميذ الي المدارس الإنكشارية في العاصمة ، ولم تترك هذ اللائحة مايخص التعليم والسياسة التعليمية حتي توحيد الزي المدرسي قررته اللائحة ، اضافة الي ماتضمنته من مناهج تفصيلية ، وكتب ، وتحديد أعداد الطلاب وتوزيعهم علي التخصصات المختلفة ، وزيل علي مبارك كل ذلك برؤيته الي أهل مصر بأنهم كغيرهم من الأمم الأوروبية في قبولهم للصالح والتقويم ، اذا سار فيهم حكامهم سيرة الاستقامة والعدل .

واذا كان حديثنا حول التعليم وقيمة العلم منصبا علي حالة المجتمع المصري لا لشيء سوي أن مصر هي التي ارتادت هذا المجال فأخذت المبادرة والخطوة الأولي نحو الاتصال بالنموذج الغربي ، ثم انتقل هذا النموذج من مصر الي بقية المجتمعات العربية في ظروف مختلفة ووفق كل حالة من حالات الاتصال الثقافي.واذا كنا مانزال بصدد محاكاة النموذج الغربي في العلم ومجالاته المختلفة وبمستوياته المتعددة انسانية وتكنولوجية ، وبغيتنا في الوصول والرقي الي التماثل والتشابه فيما وصل اليه " الآخر" من نتائج ، إلا أنه يجب علينا أن

نتسلح أولا بإجادة الأداة الرئيسية من أدوات العلم ألا وهي " اللغة " وأقصد بها لغة البحث المرتقب فهل هي عربية خالصة تؤكد علي هوية النموذج المبتغي ، ام هي فرنسية ام ايطالية ، ام المانية ، اما انجليزية ام غيرها . ولكن الخوف كل الخوف عندما تختلط المفاهيم امام التلميذ - واقصد هنا تلميذ الحضارات والثقافات - فلا ينشد تعليم اللغة إلا لذاتها ويعتبرها الهدف والمنال ، لا أداة او وسيلة للفحص والتقصي. وهنا قد لايختلف الأمر كثيرا عن عملية تغريب الثقافة التي كان مايزال ينشدها ويهدف اليها الغرب بشتي وسائله من استعمارية وثقافية واعلامية وغيرها .

فالحديث عن الهوية او الذاتية مقرون بعملية الاتصال بين الثقافات ، فيحتم في المقام الاول الحرص والخوف والتخوف من مصير اللغة الوطنية اداة الثقافة والهوية . واذا كان تعلم اللغات الأجنبية في دائرة الإتصال الثقافي أمرا هاما ، فإن هذه مسألة أجابت عنها الشعوب الأوروبية بعد كثير من الجهد والتفكير والتجربة ، فكانت اجاباتها منتفعة بجهدها وتفكيرها وتجربتها ، اما نحن فأجبنا عنها مقلدين ومتأثرين بالسياسة وظروفها وفي غير جهد وتفكير ، ولا تجربة ولا انتفاع .

ورغم حاجتنا الي محاكاة النموذج الغربي ، او قل " غربنة " اللغة بوسائل شتي منها أن ندخل طائعين الي حيز التعلم والتصال ، وهذا ماتم ويتم الآن ، ويتوقع له الاستمرار . أو ماعمدت اليه الدول الاوروبية من بسط لنفوذ لغالتها مثلا جاء الفرنسيون الي الشرق فحاربوا اليونانية واللاتينية ، وجاء بعدهم الانجليز فحاربوا الفرنسية ، لكننا كنا في شوق الي التعلق بأداة الثقافة الغربية والعلم الغربي ، لأن حاجتنا الي اللغات الأجنبيه (٢٩) أشد جدا من حاجة الأمم الأوروبية الراقية.لكننا عندما نشعر بالخطر يستحكم فينا شرقا وغربا (داخل الوطن العربي) نفزع الي اقامة دعوتنا الداعية الي التعريب ومقاومة الغربنة والغزو

الثقافي . لكن كل ذلك يعود الي الذات العربيـة لأنها ترتضي لنفسها أن تكون " بولاهمية " الإتصال بغيرها .

ـ الذات العربية ونموذج العلوم الإنسانية والتكنولوجية :

لايخفي علي أحد أهمية العلوم الانسانية والاجتماعية (٣٠)لأي مجتمع من المجتمعات ، فاهتمامنا بها نشأ من حاجتنا لفهم المجتمع (الأمة) علي أفضل وجه ممكن بهدف تحسين ادارته ودرجات التوازن والرضا التي يشعر بها افراده ، فيتكاملون داخل هذا المركب الانساني . فالعلوم الانسانية والاجتماعية المعاصرة هي دراسات " منهجية منظمة " للظاهرة الانسانية في بعديها الفردي والجماعي ، وقد نشأت تدريجيا داخل الثقافة الغربية منذ القرن التاسع عشر ، ولذلك فإن غاب الاتفاق التام بين اقطاب التفكير المعرفي حول هوية هذه العلوم ، بعد أن اختلفوا حول مستوي الروح العلمية لفروعها ، فإن هذا لايعني بتاتا أنهم مختلفون حول تاريخ نشأتها ونوعية مضامينها وفروعها وفعالية تفسيراتها ونتائجها ، فنشأتها ترجع الي القرن الماضي ، وفروعها تتسلسل من السوسيولوجيا الي السيكولوجيا ، الي اللسانيات الي التاريخ الموضوعي ، الي علم الاقتصاد والاقتصاد السياسي ، الي علم السكان والجغرافيا البشرية الي السيبرنطيقا . فتظهر فعالية نتائجها في شتي مجالات الحياة اليومية ، بدءا بتصحيح مسار المجتمع وتوجيه سلوك الانسان ، وتطوير وظائف اللغة ، وانتهاء بالتوزيع العادل للثروات والخيرات والتخطيط الجيد للإسكان والعمل والانتاج .

ولكن بلوغ العلوم الانسانية والاجتماعية هذه الدرجة من التطور لم يجعلها تنفصل لا عن الفضاء المعرفي والقيمي للفكر الغربي ـ الذي كان لفلسفة عصر التنوير الدور الأكبر في تحديده ـ ولا عن الظروف المجتمعية التي أفرزت أبرز نظرياتها . اذن فالعلوم الانسانية والاجتماعية المعاصرة قد نشأت في خضوع تام لتصورات الغرب بعد الثورة الفرنسية عن الآلة والانسان والحياة والطبيعة والعلم

ولتجربته مع الدين ، ولمسار علاقاته ببقية المجتمعات الانسانية ، وفي مقدمتها الذات العربية والاسلامية .

وتعبر العلوم الانسانية في اساسها عن ازمة كيان ، ان صحت هذه التسمية ، فنشأتها جاءت من الرغبة في اثبات وجود هذه العلوم وتحديد مكانها بين بقية العلوم والمعارف تحديدا واضحا نهائيا ومعترفا به من الجميع ، اي من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوجية من ناحية ، والمشتغلين بالعلوم الانسانية ذاتها من الناحية الأخري . وعلي الرغم مما قد يبدو في هذا القول الأخير من غرابة ، فليس هناك حتي الآن اتفاق تام بين المتخصصين في العلوم الانسانية انفسهم علي تحديد هذه العلوم . ويرجع البعض الأزمة والتخلف الذي تعانيه العلوم الانسانية الي قلة الانفاق علي البحوث ، وقد يفسر الانصراف عن تدعيم هذه البحوث ذاتها الي قلة العائد الملموس منها (٣١) . ولكن رغم ذلك فليس هناك شك في أن العلوم الانسانية خليقة بأن تلعب دورا هاما في حياة الانسان المعاصر وانسان المستقبل بل وقادرة علي الاضطلاع بهذا الدور بشكل لم يتيسر لها من قبل ، وأن تساعد علي حل كثير من المشكلات والأزمات التي نجمت عن التقدم التكنولوجي الحديث .

واذا ماتناولنا الأنثروبولوجيا كمثال نجدأنها قد نشأت كعلم مستقل عن الفلسفة الاجتماعية ، نشأة غربية في أواخر القرن الماضي . مع ان العرب(٣٢)كانوا قد طرقوا كثيرا من موضوعاتها منذ زمن بعيد . فهناك ولاشك وجهة نظر عربية اسلامية بصدد الانسان والكون والحياة ، ويمكن للباحثين العرب الوقوف عليها في الأعمال التراثية المتنوعة التي تركها لنا المفكرون العرب والمسلمين في مراحل تاريخية سابقة . فإذا تتبعنا دخول الفكر الأنثروبولوجي الي العالم العربي في العصر الحديث نجده متمثلا أساسا في التطورية الداروينية والسبنسرية التي تأثر بها كثير من الدارسين العرب بأوروبا ، والتي انعكست في

كتابات العديد من مفكري العرب في مرحلة الفكر الاصلاحي . هذا وقد دخلت الأنثروبولوجيا كمادة تدريسية في العالم العربي منذ الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن حيث درسها بعض الانثروبولوجيين الاوروبيين في عدد من الجامعات العربية .(٣٣)

أما في اوائل القرن التاسع عشر فقد تعمقت الهوتان العلمية والتكنولوجية بين المجتمعات الغربية والعربية ـ ناهيك عن الهوات الأخري ـ من الاتساع لدرجة أن جهود عدد من المجتمعات العربية للقضاء علي السيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية قد باءت بالفشل ـ ومنذ العثمانيين مرورا بفترة حكم محمد علي في مصر وغيره من الحكام في المجتمعات العربية كانوا علي وعي كبير بالآثار العسكرية والاقتصادية للتخلف التكنولوجي في بلدانهم ، وأن عدم الشعور بالأمن العسكري قد أخذ يسيطر علي الاحداث اليومية في المجتمعات العربية لنحو قرنين من الزمان ، وبات الدفاع وتوفير الحماية هو الشغل الشاغل أمام " الذات العربية " ، في الوقت الذي أدركت فيه المجتمعات العربية اهمية العلم والتكنولوجيا ، لا في المجالات العسكرية فقط ـ والتي لم تصل بعد الي تحقيق قدر معقول فيه ـ بل في مجالات الغذاء والزراعة والإسكان والصحة والصناعة والعمالة فهي كلها تنطوي علي مشاكل وأزمات تكنولوجية خطيرة .

وان كان النموذج المصري قد بدأ مسيرة البحث العلمي في مصر في العصور الحديث لاسيما عندما رافق العلماء الفرنسيون نابليون خلال احتلاله القصير لمصر.فمنذ ذلك الوقت ، حدثت في مصر تحولات اجتماعية واقتصادية وفنية وثقافية هامة ، وجاء أول تعبير عن الاهتمام العام بسياسة العلم في عام ١٩٣٩ عندما أنشيء " مجلس فؤاد الأول القومي للبحوث " . واذا تجاوزنا هذه الفترة نجد أن الكتابات المصرية في موضوع العلم والتكنولوجيا والتنمية في الخمسينيات قد سبقت مؤتمر الأمم المتحدة لتسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض

التنمية في عام ١٩٧٩ بنحو عقدين ، علاوة علي ذلك كان تدريب القوي البشرية العلمية والفنية المصرية يجري علي نطاق كبير . وفي هذا الشأن ، كانت مصر بالمقارنة ، احسن حالا من الهند والصين . وسواء وضعنا مصر في اطار عربي او في اطار العالم الثالث ، فإنها تظهر كحالة جديرة بالاهتمام .

ومع ذلك يشعر المجتمع العربي أي " الذات العربية " أنها في حاجة الي " نموذج للعلم " ، لكنها تشعر دوما بالحاجة الي ذلك (٣٤) وهذا مايؤكده تقرير الصندوق العربي اللبحوث العلمية والتكنولوجية الصادر لعام ١٩٧٨ ، والذي يعالج " المحيط العلمي التكنولوجي" للعرب ، تحت عناوين التخلف ، والتبعية ، والتمويل ، ويتصدي التقرير للدعوة الي اطلاق العنان للقدرات الخلاقة ، ثم يعود التقرير فيشير الي " الذات العربية " فيخلص الي القول : " بأن العجز العلمي والتكنولوجي انما هو أمر طبيعي مصاحب لمجتمع لايزال موسوما بانتشار الفقر ، وارتفاع مستويات الأمية ، وبمواقف اجتماعية بالية في بعض الأحيان ، وبقوة عمل لاتزال تحافظ علي اتجاهها الراهن ، وبفئة من الكوادر الذين يعمل محيطهم في الغالب علي سحق معنوياتهم ودفعهم للخيبة ، وبالجاذبية التي تمارسها الهجرة عن الوطن ، واخيرا وليس آخرا بطبقة من الصفوة التي اقامت الدليل كثيرا وفي ظروف مختلفة ، علي قدرتها المحدودة علي دفع الاقتصاد نحو اللحاق بالعصر الصناعي " . ويردف التقرير " بأن البلدان العربية ، وبدون استثناء ، وان يكن بدرجات متفاوتة بالطبع باختلاف العوامل الاجتماعية والتاريخية ، هي بلدان مستهلكة للتكنولوجيا وليست " صانعة للتكنولوجيا " .

ـ خاتمة واستنتاجات :

من اللافت للنظر أن إشكالية علاقتنا بالغرب هي اشكالية او قضية متجددة في واقعنا الحديث والمعاصر ، لكن المراقبة الدائمة لعلاقة وفتح آفاق جديدة أمام التفكير لإعادة تأمل هذه العلاقة ومحتواها والتغير الذي طرأ ويطرأ عليها يمثل أمامنا عمقا وأساسا قويا يرشدنا في قراراتنا وأفعالنا ، فضلا عن قدرتنا علي الاستيعاب والتعامل دون ان نقع في مهاوي الارتباك والارتجال ودائرة الفعل ورد الفعل . ولتكن نطقة البدء في المعالجة هي البدء بأنفسنا لأننا " الذات " او الطرف الذي تقع عليه مهمة نقد وتأمل هذه العلاقة ، وذلك بحكم أننا المتضررون من هذه المعادلة منذ بداية طرحها في الوعي العربي ، خاصة وأن الطرف الأقوي ليس لديه مايبرر هذه المراجعة لانفسيا ولا عقليا . بل بالعكس تكمن مصلحته في الإبقاء علي هذه المعادلة بخللها الفادح. وعليه فيجب علينا تحرير أنفسنا من صورة الغرب التي رسمها عن ذاتنا ، وهي جد مهمة معقدة لأنها ستقتضي مقاومة طويلة فردية وجماعية نظرا لعمقها الزمني والتاريخي وطبيعتها المعرفية والنفسية فتفرض علينا ـ باديء ذي بدء ـ قيامنا نحن بنقد ذواتنا وثقافتنا ، وصولا الي وعي متزن بأنفسنا فندرك ايجابيا شخصيتنا ومثالبها حتي نستلهم العمق الزمني والثقافي والتاريخي للذات العربية بهدف ردها الي حيزها التاريخي وفضائلها الثقافية ، ومنحها القدرة علي اعادة بناء الثقة وقدرتها علي اجتياز مراحل جديدة في التغير والعمران البشري .

فالقطع بأن العلوم الاجتماعية التي تأتي الينا من الغرب ترسم صورا متحيزة وغير دقيقة ، وأن ثقافتنا كما تداخلت او تفاعلت في الماضي مع الثقافة الغربية فإنها تتداخل الآن وتتفاعل مع نفس الثقافة ، وربما بدرجة اقوي واخطر بحكم التطور الهائل في وسائل النقل والاتصال وبحكم الخلل الحالي الكبير في التوازن بين انتاج الثقافتين ، ولكن ماالسبيل الي الخروج من هذا الظرف الراهن ؟ .

فالخروج منصب علي حاجتنا الملحة الي تطوير " مدرسة عربية " في كل من الأدب المقارن ، والعلوم الاجتماعية الرئيسية ، ويزيد في ايماننا نحو تحقيق هذه الحاجة خصوصيتنا الثقافية والحضارية التي تحتم علينا التوجه نحو بناء الذاتية المستقلة والفاعلة في آن . وأن الدرس الحقيقي في هذا الظرف هو انشغالنا بحسم وتحديد علاقتنا بالغرب ، وبانضاج ثقافتنا القومية الخاصة ، وان الإنشغال هو واحد في اتجاهين لايمكن فصل أحدهما عن الآخر ، ولا يمكن أن يكون أحدهما بديلا للآخر ، طالما أن التداخل الحضاري حقيقة تاريخية قائمة ومستمرة .

ونستخلص من الدراسة الراهنة أهم النقاط والاستنتاجات التالية :

أولا ـ بات واضحا منذ زمن أن الحملة ضد " الذات العربية " في الغرب تتركز علي جهات ثلاثة هي : السياسة ، والنفط ، والدين ، فالعرب يصورون علي أنهم تجار حروب ، معادون للسلام ، وأنهم رجال قبائل يعيشون في الصحراء ، ويريدون حرمان الغرب من شريان حياتهم ، وأنهم متعصبون دينيا ، ورغم أن العرب يملكون أدوات الرد من خلال ثلاث هيئات تعمل في تلك الجهات وهي : الجامعة العربية : سياسيا ، ومنظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول : نفطيا ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي : دينيا . إلا أن المحصلة حتي الآن هي عدم تقديم الحقائق السياسية والثقافية والانسانية والاقتصادية العربية للغرب . كما يجب العمل علي التقريب بين المجتمعات الغربية والمجتمعات العربية عن طريق تضييق الهوة بينهما لا بمجرد تحسين قنوات الاتصال فقط ، وانما المطلوب اولا وفي الأساس الإنسلاخ من الماضي ، وإقامة نظام اقتصادي جديد يستند الي المساواة وعدم التبعية . فنظام كهذا سيؤدي الي تغييرات جذرية في العلاقات بين الدول الصناعية الأوروبية والدول العربية النامية علي الطرف الآخر من المتوسط .

ثانيا ـ تكمن الأسباب الرئيسية في عدم تقديم صورة منصفة للذات العربية من جانب الأوروبيين شمال المتوسط الي الثقة شبه العمياء التي يثقها الأوروبيون

في المادة الثقافية وأدواتها التي تقدم بها صورة العربي اليهم ، وتتركز هذه الادوات في يد اجهزة الاعلام المسيطر عليه قوي ذات اتجاهات وميول واحقاد بغيضة تجاه العرب ، فضل عن اتسام الأدوات الاعلامية بالتنظيم القوي ودقة التصميم . اضافة الي معرفة الأوروبي الهشة بالعربي وبمنطقته وبحاضره الذي يعيشه، فضلا عن الجهل والتحيز الثقافي الذي يعود لأسباب تاريخية وسياسية ودينية . وعليه لابد من التقدم بخطوات متوازية من كلا الجانبين من اجل ازالة الصدأ الذي شوه معدن العلاقة الثقافية بين شعوب المتوسط .

<u>ثالثا</u> ـ من الضروري ان تتخلي الذات العربية عن الاستفهام المطروح حول حاضر ومستقبل الثقافة العربية والذي يبدو دائما في صورة آلية دفاعية ، والذي كان بمثابة استجابة شرطية لكوارث الواقع بعلاقاته الداخلية والخارجية ، والذي كان تعبيرا عن افلاس الأنساق السياسية الشمولية فيه ، والموازية لإفلاس أنظمتها الثقافية المغلقة او تعبيرا عنها . وهنا يجب استبدال الآلية الدفاعية المتخيلة للثقافة العربية ومضمونها ، والاتجاه الي اقامة نظام ثقافي عربي جديد ، علما بأن تشييده لايؤسس اعتمادا علي فريق عربي دون غيره ، ولا تصوغ ملامحه أطراف عربية في غيبة غيرها من الأطراف الأخري . وهذا النظام المبتغي لايتحقق ـ في تقديري ـ رلا بتوفر أقصي درجة من المصارحة ، وأرفع درجة من الاجتهاد ، وأعلي درجة من التحرر .

<u>رابعا</u> ـ لقد اعتمدت المحاولات الحديثة في وضع البناءات النظرية ـ في أغلبها ـ علي اواقع المجتمعات الاوروبية ، مما قلل من امكانية شمولية المعرفة النظرية وعالميتها ، ذلك لأنها رصدت العموميات واهملت او تجاهلت الاختلافات النوعية الناجمة عن اختلافات العمليات التاريخية وما تولد عنها . ورغم ذلك لايمكن الأخذ بالبناءات النظرية التي قامت علي مجتمعات معينة ، وتطبيقها حرفيا علي مجتمعات اخري . لكنه رغم وجود قواعد مشتركة ومتشابهة في

الواقع الاجتماعي للمجتمعات الانسانية ، فلا يمكن اغفال هذه المعرفة كليا ، بل يجب الاستفادة منها والاستعانة بها شريطة أن يكون الواقع الاجتماعي النوعي هو الموجه الأساسي دون محاولة صياغته بما يتفق مع المستوي المعرفي القائم . فمن المعروف ان الغرب قد تقدم في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، وهو يعلم درجة تخلفنا ـ آنذاك ـ ويعلم أننا سنحتاج الي مالديه من أدوات العلم والمعرفة ـ بعد أن أخذها أو أخذ أسسها منا ـ فلم يعرض علينا المساعدة من تلقاء نفسه ، وانما جاء إلينا فاستعمرنا ، وعرض علينا بضاعته ، وتركنا نحن الذين يجب علينا أن نلهث وراء الغرب وعلمه . وما حدث في القرن الماضي يتم الآن بنفس الحوار والدرجة لاسيما في التعامل مع العلوم الفنية والتكنولوجية المتقدمة ، وتحفظ الغرب الدائم علي ملف الإختراع والإبتكار بعيدا عن دائرة العلاقات مع العرب ، وربما كانت أزمة وحرب الخليج عام ١٩٩٠م خير شاهد علي ذلك .

خامسا ـ من أجل ان تحقق الذات العربي قدرا من التواصل مع غيرها ، عليها أن تعمل علي تعميق قيم الحرية والعدل أمام الإنسان العربي ، وهذا لايتحقق إلا من خلال الحفاظ علي مؤسسات المجتمع لابوصفها نظاما سياسيا مطلقا ، وإنما بوصفها نظاما منفتحا يقوم علي الحوار والتفاعل والتجدد ، واحترام حق " الآخر" في المخالفة والنقد ، فضلا عن تصفية الوعي من رواسب الدولة التسلطية .

سادسا ـ ان اسهام العرب في بناء المعرفة في الميدان الاجتماعي وما يرتبط به ، وما يحتويه ، يعتمد علي قدرتهم في دراسة واقع ظروف مجتمعاتهم وفهمها والتغيرات التي حدثت وتحدث ، من خلال وضع هذا كله في أطر وتعميمات علمية تؤدي الي زيادة فهمنا للظواهر الاجتماعية الانسانية عامة ، وهنا يمكن للعرب أن ينجزوا المعرفة العالمية ويخدموها ليس فقط من خلال العوامل

والمتغيرات الخاصة ، وانما في نسق معرفي جديد ، ومن زوايا جديدة ، ويمكن ان يتحقق هذا من خلال التعرف علي التراكم المعرفي والثقافي الذي تواجد وتراكم في التراث العلمي العربي باعتباره جزءا من المعرفة العالمية ، وهنا نصل الي جوهر الثقافة والتي لاتعرف بحق الحدود والفواصل بين الشعوب .

ـ الهوامش ومراجع البحث :

(١) تشير كلمة " مستعمرColonist " ، و " استعمار Colonization " ، في القاموس الثقافي العربي الموروث الي معني النهب والإبتزاز والسيطرة ، اما في العقل السياسي الغربي ، فتشير الي خلق مجتمعات او مستعمرات جديدة لدول او بلدان غير قادرة علي الوفاء باحتياجاتها ومصالحها من تلقاء نفسها. ولذا جاء الاستعمار كي يقدم لها خدمة الإعمار !! .

(٢) لقد عرض البرت حوراني .Hourane, A مناقشة جادة بين الذات والآخر في كتابه بعنوان:

- Arabic Thought in the Liberal Age (1798 - 1939), Oxford University Press, 1967, PP.47-52.

(٣) د . محمد عباس ابراهيم ، الثقافات الفرعية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥م ص ٣١٥ وما بعدها.

(٤) راجع في ذلك :

- Benedict, Ruth ; Patterns of Culture, Routledge & Kegan Paul, London, 1949, PP.35-37 .

- Kardiner, Abram; Basic Personality Structure, Columbia University Press, 1963,PP.163-167.

(٥) السيد يس ، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٣م ، ص ص ٥٤ ـ ٥٥.

ـ ويمكن القول أن الفترة من ١٩٤٢ ـ ١٩٥٣ شهدت صدور اكثر من عشرة كتب في امريكا وحدها ألفها أنثروبولوجيون أمريكيون في موضوع الشخصية القومية ، وتناولت دراسات حول الأمريكيين ، واليابانيين ، والصينيين ، والألمان والروس . ويعد كتاب الانثروبولوجية

الأمـــريكيـــة روث بنديكت Benedict بعنوان " زهرة الصـــبـــار والســـيف The Chrysanthemum and the Sord" واحدا من اهم الكتب الشهيرة في هذا المجال .

(٦) ومن أمثلة تلك الدراسات :

- ادوارد لين ، المصريون المحدثون ، ترجمة عدلي طاهر نور ، دار النشر للجامعات المصرية القاهرة ، ١٩٧٥ .

- علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الخامس ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

- محمد وهبي ؛ أزمة التمدن العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٦ م .

- حامد عمار ؛ الشخصية الفهلوية ، في كتابه بعنوان : في بناء البشر ، دراسات في التغير الحضاري والفكر التربوي ، منشورات سرس الليان ، ١٩٦٤ م . وكذلك كتابه : عن التنشئة الاجتماعية في قرية مصرية ، قرية سلوا بمحافظة اسوان ، والناشر للترجمة العربية ، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية ، ١٩٨٧ م .

- عبد العزيز الرفاعي ؛ الطابع القومي للشخصية المصرية : بين الايجابية والسلبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

- سيد عويس ، من ملامح المجتمع المصري المعاصر ، رسائل الي ضريح الإمام الشافعي ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

- حليم بركات ؛ المجتمع العربي المعاصر : بحث استطلاعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

(٧) صادق جلال العظم ؛ النقد الذاتي بعد الهزيمة ، مواقف ، السنة الأولي ، العدد الرابع ، يونيو ١٩٦٩م .

(٨) حامد عمار ؛ في بناء البشر ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(٩) مقتبس عن جريدة الأهرام اليومية بتاريخ ١٩٩٣/٥/٢٨ م بالتعاون مع مجلة " قنطرة " الصادرة باللغة الفرنسية عن معهد العالم العربي في باريس ، في عددها السابع لسنة ١٩٩٣ م . وقام بالترجمة الي اللغة العربية المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري .

(١٠)راجع في ذلك :

- عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للأمة العربية : دراسة في الهوية والوعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٨٣ وما بعدها .

ومن كتب التراث العربي :

- رحلات ابن بطوطة .

- رحلات ابن فضلان .

- التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، حديث الليلة السادسة ، تحقيق احمد أمين ، مكتبة الحياة، بيروت د . ت . جـ ١ .

(١١) - Edward Atiyah; The Arabs, Lebanon Bookshop, Beirut, 1968, PP.112-120.

(١٢) حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات : دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٣٨، الكويت ١٩٨٩ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(١٣) - محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

- وهذا مانجده الأن لدي مجتمعات الخليج العربية ، والتي تعيش في داخل تصورها " للخير غير المحدود" فتنظر الي ماعداها من خلال ثنائية الغني والفقر ، و " المواطن " وغير المواطن ، وهي " مفاضلات " لتدعيم " الذات " عن طريق التزيين والتمجيد في مقابل الرؤية " للآخر" الذي لايتمتع بهذه الصفات . نحيل القاريء الي المصدر التالي :

- Sulayman , N. Khalaf ; Gulf Societies and the Image of Unlimited Good, In; Dialectical Anthropology, No.17, PP.53-84, Netherlands,1992.

(١٤) تعد مدرسة الاسكندرية القديمة منارة للعلوم والمعارف منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن المعروف أن الاسكندرية أسسها الإسكندر الأكبر المقدوني سنة ٣٣٢ ق . م . وكان الاسكندر تلميذا للعالم الكبير ارسطو . وظلت الاسكندرية عاصمة البلاد أثناء حكم البطالسة . وقبلها كان للكهنة المصرين سمعة رفيعة بين علماء العالم ادت الي ارتحال الكثيرين من كبار علماء وفلاسفة اليونان الي مصر لتلقي العلوم فيها ، وعلي الأخص الرياضيات والفلك، ومن هؤلاء سولون ، وهومير ، وفيثاغورث ، وأرشميدس ، وجميعهم من جهابذة العلماء الذين أسسوا النخضة العلمية اليونانية ، واشتهروا بنظرياتهم وفلسفاتهم .

(راجع في ذلك : نعمات أحمد فؤاد ، التراث والحضارة ، كتاب الهلال رقم ٤٠٧ ، نوفمبر ١٩٨٤ ، مؤسسة دار الهلال ، القاهرة ، ص ١٢) .

(١٥) انظر في مثل هذه الدراسات كل من :

- J.G. Peristiany , Mediterranean Family Structure, Cambridge University Press, 1976 .
- J.Dvis, People of the Mediterranean , Routledge & Kegan Paul, London,1977.

(١٦) - Edward William Lane ; An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, Written in Egypt During the Years 1833-1835, East-West Publications, Hague, London, 1978, PP.223-225 .

(١٧) راجع في ذلك ماكتبه الدكتور أدمون غريب عن الإعلام الأمريكي والعرب ، ملف ندوة الصحافة الدولية لعام ١٩٧٩ ، والتي عقدت بمدينة لندن تحت عنوان : الصورة العربية في وسائل الإعلام الغربية .(علما بأن الصورة النمطية التي رسمها الغرب للشرق ستظل كما هي سواء بين الأوساط الشعبية او الرسمية ، واليك مقتطفات من

كلمة السيد ادوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا السابق في حفل العشاء الذي اقيم في ختام اليوم الأول من أعمال الندوة سالفة الذكر . حيث يقول فيما يخص العلاقة بين الغرب والعالم العربي والاسلامي : هناك مثل يظهر اهمية توفر المزيد من المعرفة والتفاهم .. هو إيران . لقد عرفت ايران لسنوات عديدة خلت ومع ذلك فإنني اعترف بأنني فوجئت بل ودهشت حين رأيت مارأيت من موقف جماهير الشعب الإيراني التي كنت اظنها سعيدة وراضية بواقعها تحت حكم الشاه . ومع ذلك حدث ماحدث ليثبت ان الجيل الجديد في الدول الاسلامية لايقبل بصورة تلقائية الأنماط الغربية للحضارة . ومن هنا ، علينا نحن ايضا أن نفهم بصورة صحيحة تاريخ العالم الاسلامي وثقافته وأن نفسره بشكل سليم . وهذا أمر هام لنا سواء في عملنا السياسي ام التجاري ام في معاملاتنا بشكل عام) .

(١٨) انظر في ذلك : الدكتور محمد عابد الجابري ، الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ م ، ص ١٩٥ ـ ٢٠٤ .

(١٩) احمد أبو زيد ، اسطورة الغزو الثقافي ، مجلة الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، مارس ١٩٨٨م .

(٢٠) دكتور حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ و ما بعدها

(٢١) راجع في ذلك : بحثنا حول " الهوية الثقافية بين الأصالة والمعاصرة في مجتمعات الخليج العربية ، قدم الي ندوة الهوية الثقافية وتفاعلها مع الثقافات الأجنبية في دول الخليج العربية ، ونشر بمجلة شؤون اجتماعية ، العدد التاسع عشر ، السنة الخامسة ، خريف ١٩٨٨ م ، الشارقة ، الإمارات .

(٢٢) راجع في ذلك :

ـ انطوان زحلان ، العلم والسياسة العلمية في الوطن بالعربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص : ٤٠ ـ ٤٥ .

- الأب جورج قنواتي ، معنى التراث العلمي الاسلامي المعاصر ، مجلة العلم والمجتمع، مطبوعات الونسكو، القاهرة ، ديسمبر ١٩٧٦ ، ص : ٣٥ .

(٢٣) في اطار صور الدفاع والحماية " للذات " عقدت منظمة المؤتمر الاسلامي في مسقط بسلطنة عمان يومي ٢٠ ، ٢١ اكتوبر ١٩٩٢ م ، ندوة ناقش فيها خبراء من عمان والسعودية والكويت ومصر وايران وماليزيا والسنغال الاجراءات الفنية والعملية لإنشاء تلفزيون اسلامي يستجيب لآمال الأمة الاسلامية وتطلعاتها ويواجه تحديات العصر بأطباقه وأقماره الفضائية . وقد جاء ذلك على لسان وزير الإعلام العماني عبد العزيز الرواس . وفي المقابل وقبل انعقاد الندوة بأيام قليلة اجرت صحيفة " المسلمون" الأسبوعية التي تصدر في جدة ولندن سلسلة من التحقيقات تحت عنوان " الغزاة يدخلون من سطوح منازلنا " ، هاجمت فيها بشدة " الهوائيات الشيطانية " ، واتهمتها بأنها المدير الأول الذي سيؤدي الي خلخلة البنية الاجتماعية للمجتمعات الاسلامية . وتندد الصحيفة بالصراع الإعلامي الرهيب وغير المتكافيء في القدرات والامكانات بين العالم العربي والاسلامي وبين الغرب المزود بوسائل " شيطانية " !!

(٢٤) انظر في ذلك :

- رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الأبريز في تخليص باريز ، كتبه في باريس عام ١٨٣٠ ، ونشرته مطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٨٣٤ م ، ثم توالت طبعاته الشعبية بعد ذلك .

(٢٥) جابر عصفور ، دفاعا عن التنوير، الكتاب رقم ١٨ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، سبتمبر ، ١٩٩٣ م ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٢٦) راجع في ذلك :

- طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة المعارف ومكتبتها ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، الجزء الأول والثاني .

- توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،

القاهرة ، ١٩٣٨ م .

(٢٧) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، مرجع سابق ص : ١١٢ ـ ١١٣ .

(٢٨) وفي شأن تحديد وتوحيد الزي المدرسي قررت لائحة رجب التي اصدرها علي مبارك ان يصرف لكل تلميذ عدد ٢ قميص ، ٢ طربوش ، ٣ طقية ، ٣ صديري غرلية ، ٣ جلبية ملونة شكل واحد مسدودة الصدر بياقة ، ٢ مركوب جزمة بلدي ، ٤ شراب ابيض ، ٣ دكك ، بالاضافة الي كبود للشتاء وزر حرير ، ٦ حزام من جلد بأبريم او كمر .

ـ راجع في ذلك ماكتبه علي مبارك في كتابه : نخبة الفكر في تدبير نيل أهل مصر .

(٢٩) علي الرغم من وصفنا المعمم علي النموذج الأوروبي إلا أن خصوصية اللغة بين شعوبه كأداة للبحث هي مسألة في غاية الأهمية ، فالحفاظ عليها حفاظا علي الذات ، ويدل علي ذلك أنه في أحد حواراتي ذات يوم مع البروفيسور جون بيتي John Beattai استاذ الأنثروبولوجيا بجامعة اوكسفورد ، وعن أهمية اللغة كأداة للبحث ، وبعد أن ترجم احد كتبه بعنوان " الثقافات الأخري او المغايرة " الي عدة لغات اجنبية، وبعد أن امدني بموافقة منه لترجمة ذات الكتاب الي اللغة العربية مقرونة بصحيفة مفصلة عن سيرته العلمية الذاتية ، سألته لماذا لاتتعلم اللغة العربية ؟ وهل لديك الرغبة في تعلمها ؟ أجابني في كلمة مختصرة ، موجزة ، برهن فيها عن كل مافي ذهنه حاضرا ومستقبلا ، قال لي : إنني لست في حاجة اليها!! .

اذن نحن شعوب محتاجة ، وشعورنا الدائم بالحاجة لاشك أنه يعمق في نفوسنا الإحساس بعدم كفاية الذات ، والرغبة الدائمة في الاستجداء من الغير مهما كانت صورة الإستجداء وطبيعة الحاجة .

(٣٠) تصنف هذه العلوم الي صنفين هما :

الاول : العلوم الانسانية وهي الدراسات التي تبحث في كنه وفي فلسفة مختلفة حوانب الظاهرة الانسانية في بعديها الفردي والجماعي ، وتنضوي تحت هذا الصنف

فروع مثل الفلسفة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والانثروبولجيا (علم الانسان) ،والاثنولوجيا (علم الأجناس) .. الخ .

الثاني : العلوم الاجتماعية وهي الدراسات التي تبحث في اشتغال مختلف الأنساق الفرعية للمجتمع ، ويدخل ضمنها علم الاقتصاد ، والاقتصاد السياسي وعلم السكان،والجغرافيا البشرية ، وعلم الادارة ، والقانون ، والسياسة ... الخ .

(٣١) أحمد أبو زيد ، أزمة العلوم الانسانية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الأول ، يونيو ١٩٧٠ ، وزارة الإعلام الكويت .

(٣٢) حسين محمد فهيم ، الأنثروبولوجيا والفكر العربي المعاصر ، بحث قدم الي الندوة الدولية " نحو علم اجتماع عربي " ، تونس ، ١٩٨٥ م .

(٣٣) من المعروف أن الانثروبولوجيا (علم الانسان) درست في الثلاثينيات في الجامعة المصرية التي اصبحت فيما بعد جامعة فؤاد الاول ثم جامعة القاهرة ، وكان من بين من درسوها ايفانز بريتشارد ، وهوكارت ، كما درسها رادكليف براون في الأربعينيات في جامعة فاروق الأول جامعة الاسكندرية حاليا . وقام رادكليف براون بإنشاء معهد العلوم الاجتماعية بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، وما زال المعهد يؤدي رسالته حتي الآن وإن كان قد دخل عليه بعض التطوير في أدائه .

(٣٤) للمزيد من المعلومات في حاجتنا الي الغرب ، إضافة الي ماعرضه تقرير الصندوق العربي للبحوث العلمية والتكنولوجية الصادر عام ١٩٧٨ ، يمكن الرجوع الي الكتابات التالية :

ـ د . عبد العليم محمد ، دراسة حول اشكالية العلاقة مع الغرب ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .

ـ د . مجدي يوسف ؛ التداخل الحضاري والاستقلال الفكري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، صفحات ١٣٤ وما بعدها .

